

جامعة محمد الصديق بن يحيى – جيجل –

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم الاعلام و الاتصال

دروس على الخط فى مقياس الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية

– السنة الثانية إعلام و اتصال - السداسى الأول

أستاذ المقياس :أ. د. لعوبى يونس

السنة الجامعية 2023/2022

الأنثروبولوجيا

مفهومها، تطورها، فروعها

مقدمة: يجمع الباحثون في علم الأنثروبولوجيا ، على أن الأنثروبولوجيا علم حديث العهد إذا ما قورن ببقية العلوم الاجتماعية الأخرى ، ويكون الإنسان هو الكائن الفريد الذي اسمه الإنسان ، كان وما يزال موضوع التأمل والدراسة من قبل الكثير من العلوم الطبيعية والإنسانية ، إذ منذ القديم لاحظ الإنسان الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري ، واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسدية ولون البشرة ، والعادات والتقاليد والديانات وغيرها . وفي إطار هذا الاهتمام والتساؤل تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة أصطلح على تسميته بالأنثروبولوجيا . فما هو هذا العلم وما هي مواضيعه وطبيعته وأهدافه ؟ وسنحاول من خلال هذه المحاضرة الإلمام بموضوع الأنثروبولوجيا ومجالاتها وأقسامها وعلاقاتها ببقية العلوم الاجتماعية والإنسانية ، إذ أن لكل علم مجموعة من الظواهر التي يعكف الباحثون على دراستها بالوصف والتحليل والتفسير .

مفهوم الأنثروبولوجيا :

إن اصطلاح الأنثروبولوجيا هو تعريب للاصطلاح الإنجليزي ANTHROPOLOGY والاصطلاح الفرنسي L'Anthropologie وكلاهما يرجع للجمع بين الكلمتين اليونانيتين أنثروبوس Anthropolos ومعناها الإنسان و Logos ومعناها علم أو دراسة أي أن المعنى اللفظي للاصطلاح هو علم الإنسان ¹ . لذلك تعرف الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة . ويقوم بأعمال متعددة ويسلك سلوكا محددا ، وهو العلم أيضا الذي يدرس الحياة البدائية والمعاصرة للمجتمعات ، لذا يعتبر علم دراسة الإنسان علما متطورا ، يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله ² .

كما تعرف بأنها العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق . ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة ، ومن جهة أخرى إنه الوحيد من الأنواع الحيوانية كلها الذي يصنع الثقافة ويبدعها والمخلوق الذي يتميز عنها جميعا ³ .

و تعرف أيضا تعرف بأنها علم دراسة الإنسان طبيعيا واجتماعيا ، حضاريا أي أن الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن حي بذاته أو منعزل عن أبناء جنسه ، إنما تدرسه بوصفه كائنا

¹ عاطف وصفي - الأنثروبولوجيا الاجتماعية - دار النهضة العربية بيروت - ط3 1981 ، ص 09

² أبو هلال - مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية - المطابع التعاونية - عمان الأردن - 1974 ، ص 09

³ الجبوي علي - الأنثروبولوجيا - علم الإنسانية - جامعة دمشق 1997 ، ص 09.

اجتماعيا لطبعه يحيا في مجتمع معين له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين . فالأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة ، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض كاختلاف علم التشريح عن تاريخ تطور الجنس البشري والجماعات العرقية وكذا عن دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية⁴.

لكن من خلال هذا المفهوم يتجلى أن علم الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان أو المعرفة المنظمة عن الإنسان ، وهي تجمع في علم واحد الجوانب البيولوجية والاجتماعية والثقافية للإنسان وميدان الدراسة الأساسي لها هو الجماعات أو المجتمعات التي تدعى بالبداية ، مع اتساعه في الآونة الأخيرة ليشمل دراسة المجتمعات العليا القديمة ، ومن الناحية الاصطلاحية نجد تصورين أساسيين لهذا العلم هما :

1- **التصور الأمريكي** الذي ينظر إلى الأنثروبولوجيا كعلم يهتم بدراسة الإنسان من الناحيتين

العضوية والثقافية على حد سواء . ويستخدم الأمريكيون مصطلح الأنثروبولوجية الفيزيائية الذي يشير إلى دراسة الجانب العضوي التطوري الحيوي للإنسان ، ويستخدم مصطلح الأنثروبولوجيا الثقافية لمجموع التخصصات التي تدرس النواحي الثقافية والاجتماعية للإنسان.

2- **التصور الأوروبي للأنثروبولوجيا** الذي يختلف من بلد لآخر ، فقد كان يقصد

بالأنثروبولوجيا دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان ، حيث اتسعت في أوروبا موضوعات لتشمل الدراسة المقارنة بين الإنسان والحيوان وبين السلالات البشرية ، وحتى الدراسة المقارنة بين الذكور والإناث واصطلح الفرنسيون على الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع .

أما الإنجليز فأسموها بالأنثروبولوجيا الاجتماعية وتعاملوا معها كعلم قائم بذاته ، وهذا ما يساعد على وضع نماذج نظرية تشرح أبنية المجتمعات وتفسر الآليات والوظائف التي تساعد على استمرارية الحياة الاجتماعية وتماسكها ، وبهذا خرج إلى الوجود ما يعرف بالأنثروبولوجيا القرابة أو الذين أو الاقتصاد وغير ذلك مما يسير ضمن إطار الأنثروبولوجيا الاجتماعية . وعليه فإن الأنثروبولوجيا الاجتماعية في إنكلترا وإلى حد ما في أمريكا استعملت للدلالة على فرع معين من

⁴ التماس عيسى - مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) - منشورات إتحاد الكتاب العرب - دمشق 2004 ، ص 10.

الأنثروبولوجيا التي تعني بدراسة الإنسان ثقافيا واجتماعيا . أما لما يتحدث الأوروبيون عن الأنثروبولوجيا فهم يذهبون إلى ما يسميه الإنجليز الأنثروبولوجيا الفيزيائية ، أما ما يسميه الإنجليز أنثروبولوجيا اجتماعية ، فيسميه الأوروبيون الآخرون الاثنولوجيا .

فروع الأنثروبولوجيا :

لقد اختلفت الآراء في تحديد أقسام أو فروع الأنثروبولوجيا إلا أن معظم العلماء المعاصرين يتفقون على تمييز قسمين رئيسيين هما :

- 01- **الأنثروبولوجيا الطبيعية** : وتدرس الإنسان كحيوان ثديي بمعنى أنه يتكاثر عن طريق التناسل وتحمل أنثى الإنسان الجنين وتلده وتغذيه بالغدد الثديية وكون الإنسان حيوانا ثدييا يمثل إطارا عاما يحدد إمكانيات وأعمال الإنسان ⁵.
- 02- **الأنثروبولوجيا الثقافية** : إن الإنسان ليس مجرد حيوان ثديي وإنما هو حيوان عاقل يتميز عن جميع الحيوانات بالقدرة على التفكير ولذلك يسمى الجنس البشري الحالي باصطلاح "الإنسان العاقل" ، واستطاع الإنسان عن طريق عقله تغيير صور عناصر البيئة المحيطة به لصنع الأدوات التي يستخدمها لإشباع حاجاته، واستطاع أن يخترع القواعد التي تنظم العلاقات الاجتماعية بين البشر . والخاصة أن الإنسان ليس فقط حيوان ثديي وإنما هو الحيوان الثديي الوحيد الذي استطاع عن طريق العقل أن يضع حضارة وثقافة والمقصود بالثقافة كل أنماط السلوك المكتسبة التي تميز مجتمع ما ⁶.

أولا : الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيائية) :

هي تلك التي تدرس السمات الفيزيائية للإنسان ، أي أنها دراسة الإنسان من حيث هو كائن فيزيقي طبيعي ، فتدرس الإنسان العضوي في نشأته الأولى وفي تطوره عن الرئيسية حتى اكتسب الصفات والخصائص الإنسانية ، في صورة الإنسان العاقل ، ولذلك تعالج الأنثروبولوجيا الفيزيائية مختلف السمات الفيزيائية مثل حجم الجمجمة وارتفاع القامة ولون البشرة ونوع نسيج الشعر وشكل الأنف ولون العينين ⁷ وانتقال السمات الفيزيائية ، وتتبع المورثات الإنسانية ، كما ترتبط ارتباطا بعلم التشريح وبعلم الأثنو بوميتري وهو فرع جوهري من فروع الأنثروبولوجيا الفيزيائية ⁸.

⁵ عاطف وصفي - مرجع سابق - ص13.

⁶ عاطف وصفي - مرجع سابق - ص 13.

⁷ قباري محمد إسماعيل - الأنثروبولوجيا العامة - صور من قضايا علم الإنسان - دار المعرفة الجامعية الإسكندرية - ب.ط.د.س ، ص

18

⁸ قباري محمد إسماعيل - المرجع السابق ، ص 18

ثانيا : الأنثروبولوجيا الثقافية :

يدرس هذا القسم الثقافة ، والمعنى المبسط لذلك المفهوم هو طريقة معيشة مجتمع ما ، سواء أكان ذلك المجتمع بدائي أو متخلف أو تامي أو متقدم . ومن أهم عناصر الثقافة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان ، أي النظم الاجتماعية التي يخترعها الإنسان بصورة جماعية لينظم تلك العلاقات الاجتماعية كما أن الثقافة تجمع أيضا كل أنماط السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بعالم الأفكار مثل المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها مجتمع معين ، وكذلك القوانين العلمية التي يصل إليها .

وأمام تنوع الموضوعات التي تدخل في إطار الثقافة والتي تمثل موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية ، لذلك يقسم هذا الفرع من الأنثروبولوجيا إلى عدة فروع هي :

- 1- **الإثنولوجيا** : تعرف الإثنولوجيا بأنها دراسة الثقافة على أساس مقارنة ، وفي ضوء نظريات وقواعد ثابتة، يقصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات وتطورها ، وأوجه الاختلاف فيما بينها وتحليل انتشارها تحليلًا تاريخيًا⁹ وتعتمد الإثنولوجيا في تفسير توزيع الشعوب في الماضي والحاضر على أنه نتيجة لتحرك هذه الشعوب واختلاطها ، وانتشار الثقافات التي ترجع إلى كثرة الحوادث المعقدة التي بدأت مع ظهور الإنسان منذ ملايين من السنين ، فهي تبحث مسألة المصادر التاريخية للشعوب¹⁰.
- لذلك فإن الأنثروبولوجيا تعد فرعاً من الأنثروبولوجيا ، يختص بالبحث والدراسة عن نشأة السلالات البشرية والأصول الأولى للإنسان¹¹.
- ويدرس الإنسان الإثنولوجي كل حضارة المجتمع أو المجتمعات التي يبحثها ، وهو يهدف من المقارنة بين الثقافات إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية ولظاهرة التغير الحضاري وآثار الاتصال بين الحضارات المختلفة ، وتصنيف الحضارات إلى مجموعات على أساس مقاييس معينة.

- 2- **الأنثروبولوجيا الاجتماعية** : تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية السلوك الاجتماعي كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السياسي والإجراءات القانونية والعبادات الدينية ، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم في المجتمعات التقليدية البدائية أو في المجتمعات المعاصرة

⁹ كلوكهون كلايد : الإنسان في المرأة ترجمة شاكر سليم ، بغداد 1964 ، ص 31.

¹⁰ رشوان حسين عبد الحميد – الأنثروبولوجيا في المجال النظري – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1988 ، ص 81.

¹¹ قباري محمد إسماعيل – الأنثروبولوجيا العامة – منشأة المعارف بالإسكندرية 1973 ، ص 460.

ويهتم الأنثروبولوجي الاجتماعي بدراسة العادات باعتبارها جزء من كل الحياة الاجتماعية والأنثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرة أو ما يعرف باسم الاتجاه البنائي الوظيفي تتوفر على دراسة أنماط السلوك والتي يقوم بها البشر في دائرة مجتمعية معينة. وهذه الأنماط السلوكية التي تشكل شبكة البناء الاجتماعي والتي يتفق العلماء على تعريفها بأنها تلك الشبكة المعقدة من العلاقات التي تربط بين الأفراد والزمير الاجتماعية وتأخذ شكل النظم والأنساق الاجتماعية وتتميز بالثبات والاستمرار عبر الزمن¹² ، ومن أهم النظريات التي تسود في أبحاث الأنثروبولوجية الاجتماعية النظرية الوظيفية للعلامة "راد كليف براون" وأساسها أن النظم الاجتماعية في مجتمع ما هي إلا نسيج متشابك العناصر يؤثر كل عنصر في العناصر الأخرى وتعمل تلك العناصر على خلق وحدة اجتماعية تسمح للمجتمع باستمرار والبقاء ، وتهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بتفسير طبيعة المجتمع عن طريق تحديد وظيفة النظام الاجتماعي .

- 3- **علم الآثار** : يدرس ماضي الإنسان ، ويرمي إلى تحديد التغير الثقافي وتتابعه على مر العصور ، ويهدف أيضا إلى إعادة بناء (عملية تصورية) الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ ، ويهتم علماء الآثار بالفترات والمراحل التاريخية الطويلة التي قضاها الإنسان قبل اكتشاف القراءة والكتابة ويتعاون علماء الآثار في أبحاثهم مع المؤرخين والأنثروبولوجيين باختلاف تخصصاتهم¹³ ، فمثلا يمدهم الإثنوغرافيون والمؤرخون بالمعلومات الخاصة بالحضارات التي جاءت بعد أو فمت عن حضارات ما قبل التاريخ¹⁴.
- 4- **علم اللغويات** : يستخدم المنهج العلمي في دراسة اللغات ، ويعد أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية لأن اللغة أحد عناصر الثقافة ، بل هي أهم تلك العناصر ، وينقسم علم اللغويات إلى أقسام فرعية أهمها :

أ- **علم اللغويات الوصفي** : يهتم بتحليل اللغات ويدرس النظم الصوتية وقواعد اللغة والمفردات ، ويعتمد على اللغة في دراساته على اللغة الكلامية . وتتركز تلك الدراسات في المجتمعات البدائية التي لم تعرف القراءة والكتابة ، ولكنها ذات لغة كلامية .

¹² محمد الجوهري - الأنثروبولوجيا - أسس نظرية وتطبيقات عملية - دار المعرفة الجامعية الإسكندرية - مصر 2005 ، ص 110.

¹³ عدنان أحمد مسلم - علم دراسة الإنسان - الأنثروبولوجيا منشورات جامعة دمشق سوريا 2003 - ط3 - ص 124.

¹⁴ عاطف وصفي - مرجع سابق ، ص 17.

ب- **علم أصول اللغات** : يختص بالجانب التاريخي والمقارن إذ يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التي يمكن متابعة تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة ويهدف هذا القسم من علم اللغويات إلى تحديد أصول اللغات الإنسانية¹⁵ والعلاقة الموجودة بين عالم اللغة والأنثروبولوجي الثقافي هي علاقة تعاونية لأنه على الإثنولوجي والأنثروبولوجي الاجتماعي أن يدرس لغة المجتمع الذي يبحته ولا يتم ذلك إلا عن طريق دراسة مبادئ علم اللغويات .

قائمة المراجع :

- 01- أبو هلال – مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية – المطابع التعاونية – عمان الأردن – 1974 .
- 02- التماس عيسى – مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) – منشورات إتحاد الكتاب العرب – دمشق 2004 .
- 03- الجبائي علي – الأنثروبولوجيا – علم الإنسانية – جامعة دمشق 1997 .
- 04- رشوان حسين عبد الحميد – الأنثروبولوجيا في المجال النظري – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1988 .
- 05- عاطف وصفي – الأنثروبولوجيا الاجتماعية – دار النهضة العربية بيروت – ط3 1981 .
- 06- عدنان أحمد مسلم – علم دراسة الإنسان – الأنثروبولوجيا منشورات جامعة دمشق سوريا 2003 – ط3 .
- 07- قباري محمد إسماعيل – الأنثروبولوجيا العامة – صور من قضايا علم الإنسان – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية – ب.ط.د.س .
- 08- قباري محمد إسماعيل – الأنثروبولوجيا العامة – منشأة المعارف بالإسكندرية 1973 .
- 09- كلوكهون كلايد : الإنسان في المرأة ترجمة شاكر سليم ، بغداد 1964 .
- 10- محمد الجوهري – الأنثروبولوجيا – أسس نظرية وتطبيقات عملية – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية – مصر 2005 .

تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية

مقدمة: شهد القرن 19 ميلاد الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، وقد تزامن ميلاد الفرعين لأن معظم رواد التخصصين هم أنفسهم ، وقد كان ذلك لعدم بروز فوارق واضحة من التخصصين من جهة ومن جهة أخرى وجود الكثير من المواضيع المشتركة بينهما.

وما يميز رواد الأنثروبولوجيا عامة أنهم لم يتخصصوا في الأنثروبولوجيا في الجامعات التي درسوا فيها، بل تخصصوا في مجالات أخرى غير الأنثروبولوجيا .

1- الأنثروبولوجيا الاجتماعية : تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية السلوك الذي

يتخذ شكل نظم اجتماعية ، وتهدف دراسة تلك النظم الاجتماعية إلى تحديد العلاقة والتأثير المتبادل فيما بينها سواء بالنسبة للمجتمعات القديمة التي يتم معرفتها من خلال ما تركته من آثار أو فيما يتعلق بالمجتمعات المعاصرة التي يتم دراستها عن طريق الملاحظة المباشرة . وتهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة المجتمعات الصغيرة البسيطة التي يمكن فيها دراسة العلاقة المتبادلة بين النظم الاجتماعية جميعا ، ولذلك بدأ العلم بدراسة المجتمعات الشبه بدائية¹⁶ صغيرة الحجم ذات النسيج الاجتماعي المتكامل والمحدود والتي تمتاز ببساطة الفنون الآلية والاقتصادية وقلة التخصص في الوظيفة الاجتماعية . إذ ما قورنت بالمجتمعات المتقدمة¹⁷ ، ويضيف بعض العلماء مقاييس أخرى لتحديد المجتمعات شبه البدائية كعدم القراءة والكتابة وعدم التخصص في المجالات الاقتصادية والاعتماد في المعيشة على الصيد أو الرعي أو هما معا . وقد استمر اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالشعوب شبه البدائية فترة طويلة ، إلا أنه ومنذ فترة قصيرة حدث تغيير أساسي يتمثل في أن الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية لم يعد يقتصر مجالها على المجتمعات الشبه البدائية وإنما أصبحت تشمل أيضا المجتمعات المعاصرة المتمدنة خاصة المجتمعات الصغيرة كمجتمع القرية ومجتمع الأجساد السكنية في المدن الكبرى.

وقد مر تطور الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالمراحل التالية :

¹⁶ عاطف وصفي : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف - القاهرة ، مصر ط3 ، 1977 ، ص 105.
¹⁷ عدنان أحمد مسلم : علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) - منشورات جامعة دمشق ، ط3 ، 2003/2002 ، ص 193.

أ- **المرحلة التمهيدية :** يمثل القرن الثامن عشر مرحلة بداية تأسيس علم

الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وتعد دراسة الفيلسوف الفرنسي مونتيسكيو (1689 - 1700) التي عنوانها "روح القوانين" من أهم الدراسات التي مهدت لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وما أكدته مونتيسكيو في دراسته أن المجتمع وما يحيط به يتكون من نظم ترتبط ببعضها ارتباطا وظيفيا ، كما ميز بين البناء الاجتماعي ونظام القيم الذي يعمل في هذا البناء وأطلق على البناء الاجتماعي للمجتمع اصطلاح " طبيعة المجتمع " ويعني به البناء الخاص المتميز للمجتمع أما نظام القيم فأطلق عليه مبدأ المجتمع ويعرفه بأنه الرغبات والأهداف الإنسانية التي تدفع البناء الاجتماعي للعمل¹⁸ وجاء من بعده سان سيمون (1760-1825) الذي اقترح ضرورة إنشاء علم الاجتماع ، إلا أنه لم يكن يهدف إلى إنشاء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالذات " إنما يقصد أي علم اجتماعي يدرس النظم الاجتماعية والعلاقات التي تربطها ببعضها دراسة موضوعية ، وتحقق له لذلك على يد تلميذه أوجست كونت (1798 - 1857) الذي أطلق اصطلاح علم الاجتماع .

كما ظهرت دراسات في إنجلترا حول موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية من أهمها دراسات وأبحاث كل من دافيد هيوم وآدم سميث اللذان كانا يعتبران المجتمع البشري نسقا طبيعيا ، وترتب في ذلك الفهم ضرورة استخدام المنهج الاستقرائي في دراسته ، كما ظهرت خلال هذه المرحلة التمهيدية لتأسيس هذا العلم يعطى بؤادر الاهتمام بالمجتمع البدائي التي كانت الرحلات الاستكشافية في القرن السادس عشر مصدرا للمعلومات حول هذه المجتمعات البدائية ، وكان الاتجاه السائد في هذه المرحلة يعتبر ويصور الإنسان البدائي ، إنسانا متوحشا ، همجي .

كما اعتمد مفكرو القرن الثامن عشر في تصوراتهم للمجتمع البدائي على تلك الدراسات التي قام بها جابريل ساجارد و لافيتو عن قبائل الهيرون والإيراكو في أمريكا الشمالية خاصة الولايات المتحدة .

إن مظاهر التمهيد لقيام الأنثروبولوجيا الاجتماعية السائدة واعتبار المجتمعات الإنسانية أنساقا طبيعية ترتكز في دراستها على المنهج التجريبي والاستقرائي.

ب- **مرحلة النشأة :** تعد الفترة الممتدة من 1861 إلى 1871 مرحلة نشأة هذا العلم

، حيث صدرت العديد من المؤلفات في هذه الفترة، ومن أبرز مؤلفي هذه المرحلة نجد

¹⁸ عدنان أحمد مسلم ، المرجع السابق ، ص 194.

هنري مين وتايلور وماكلينان في إنجلترا وفوستيل وكولونج في فرنسا ومورجان في الولايات المتحدة الأمريكية وباخوفن في سويسرا ، ومن المتفق عليه فإن كل من تايلور وماكلينان ومورجان أول من درسوا المجتمعات البدائية كموضوع جدي متكامل يمكن للعلماء أن يتخصصوا فيه، كما يعتبر هؤلاء أول من أهتم بتجميع المعلومات المتعلقة بالشعوب البدائية واستخلاصها من عدد كبير من المؤلفات المتنوعة ، ثم قاموا بإبرازها في صورة منهجية منظمة واضعين بذلك أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ولذلك تحددت نشأة العلم بتلك الفترة بالذات ¹⁹.

وقد تميزت هذه المرحلة بظهور مدرستين متداخلتين هما : المدرسة النشئية والمدرسة التطورية ، ويعود الارتباط التقليدي بينهما إلى كون كل دارس لتطور النظام الاجتماعي من الماضي البعيد إلى الوقت الحاضر يعود إلى ضرورة تحديد نشأة هذا النظام ، وقد تأثر رواد المدرسة التطورية وفي مقدمتهم إدوارد تايلور بنظرية داروين في تطور الحياة الطبيعية للكائنات البشرية ، وتستند هذه النظرية إلى أن العناصر المركبة في الحضارة الإنسانية تتطور باستمرار من الأشياء البسيطة إلى الأشياء المعقدة ، وهذا ما ينسحب على تطور النظم الاجتماعية ²⁰.

لقد تركز اهتمام أصحاب المدرسة النشئية التطورية حول نظامين اجتماعيين هما الأسرة والدين ، فالعلامة مين يرى أن الأسرة الأبوية الكبيرة هي الصورة الأصلية الأولية للحياة الاجتماعية عامة ولنظام الأسرة خاصة ، كما تصور أن السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها رئيس الأسرة الأبوية هي السبب في ظهور قاعدة القرابة عن طريق الأب ، أما العلامة باخوفين فتوصل إلى نتيجة تختلف كلياً عن النتائج التي توصل إليها مين، فباخوفين يرى أن الإباحية أو الشيوعية الجنسية كانت منتشرة في الأصل في كل مكان ، ثم جاء بعد ذلك نظام عائلي يقوم على أساس الانتساب إلى الأم .

ت- مرحلة التخصص والتوسع : تميزت المرحلة التاريخية الممتدة بين 1900-

1924 بوصول الأنثروبولوجية الاجتماعية إلى مرحلة التخصص ، كما تميزت بالتمييز بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جهة و الإثنولوجيا والإثنوغرافيا من جهة أخرى ، فالأنثروبولوجيا الاجتماعية اقتصرت بالبناء الاجتماعي خاصة المجتمعات البدائية ، بينما أصبح موضوع الإثنولوجيا إعادة بناء ثقافات المجتمعات القديمة ، وكذا المقارنة بين

¹⁹ عاطف وصفي : الأنثروبولوجيا الاجتماعية : دار النهضة العربية ، بيروت لبنان الطبعة الثالثة 1981 ص ص 26 - 27.

²⁰ التماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان " الأنثروبولوجيا" - منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2004 ، ص 113.

الدراسات الإثنوغرافية ، كما تميزت هذه المرحلة بالقيام بالعديد من الدراسات الميدانية والتي فيها :

- 1- **دراسة راد كليف براون** : الذي يعد من أبرز علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية وقد تناولت دراسته هذه سكان جزر أندامان الواقعة في خليج البنغال .
- 2- **دراسة إيفانز بريتشارد** : وتعد هذه الدراسة أول محاولة قام بها لفحص النظريات الاجتماعية وذلك بالعودة إلى المجتمعات البدائية من خلال وصفه للحياة الاجتماعية.
- 3- **دراسة مالينوفسكي** : تعتبر هذه الدراسة أطول دراسة ميدانية امتدت خلال الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) ، حيث شملت هذه الدراسة سكان جزر التروبريانند بمنطقة ميلانيزيا، ويعتبر مالينوفسكي أول أنثروبولوجي استخدم لغة المجتمع المدروس ومكنه ذلك من التغلغل في الحياة الاجتماعية وبالتالي فهمها فهما عميقا .

ث- **مرحلة ازدهار الأنثروبولوجيا الاجتماعية** : امتدت هذه المرحلة بين 1927 و 1950 وتميزت بانتشار الأنثروبولوجيا الاجتماعية كعلم قائم بذاته في أوروبا خاصة في الجامعات البريطانية . كما ازدهرت الأنثروبولوجيا الاجتماعية بفضل مجهودات كل من مالينوفسكي و رادكليف براون ، وقد أدى التوسع والازدهار للبحوث الاجتماعية و الأنثروبولوجية في الفترة المعاصرة إلى وجود التقارب بين فروع الأنثروبولوجيا خاصة والأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تركزت في بريطانيا والأنثروبولوجيا الثقافية التي تركزت في أمريكا²¹ ، وقد نتج عن ذلك تحديد مفاهيم العلمين ، فأصبح أهم مفهوم في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البناء الاجتماعي الذي يعتبره كل من رادكليف براون وفورث أنه أساس الحياة الاجتماعية لأي مجتمع مستمر .

قائمة المراجع :

- 01- التماس عيسى: مدخل إلى علم الإنسان " الأنثروبولوجيا " – منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2004 .
- 02- عاطف وصفي : الأنثروبولوجيا الاجتماعية : دار النهضة العربية ، بيروت لبنان الطبعة الثالثة 1981 .
- 03- عاطف وصفي : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعارف – القاهرة ، مصر ط3 ، 1977 .
- 04- عدنان أحمد مسلم : علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) منشورات جامعة دمشق ، ط3 ، 2003/2002 .

التقاليد النظرية الأنثروبوجية 022

يجمع معظم علماء الاجتماع والأنثربولوجيا، على أنّ الرحلة التي قام بها المصريون القدماء في عام 1493 قبل الميلاد إلى بلاد بونت (الصومال حالياً) بهدف التبادل التجاري، تعدّ من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين الشعوب. وقد كانت الرحلة مؤلفة من خمسة مراكب، على متن كلّ منها 31/راكباً، وذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شملت البخور والعطور. ونتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام أفريقيا. وتأكيداً لإقامة علاقات معهم فيما بعد، فقد صوّرت النقوش في معبد الدير البحري، استقبال ملك ومملكة بلاد / بونت /.

عند الإغريق (اليونانيين القدماء: يعدّ المؤرخ الإغريقي (اليوناني) هيرودوتس Herodotus، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان رحالة محبّاً للأسفار، أول من صوّر أحلام الشعوب وعاداتهم وطرح فكرة وجود تنوّع وفوارق فيما بينها، من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية. ولذلك، يعتبره معظم مؤرّخي الأنثربولوجيا الباحث الأنثربولوجي الأوّل في التاريخ.

فهو أول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية (حوالي خمسين شعباً)، حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم، وملامحهم الجسميّة وأصولهم السلالية إضافة إلى أنّه قدّم وصفاً دقيقاً لمصر وأحوالها وشعبها، وهو قائل العبارة الشهيرة : "مصر هبة النيل. وأمّا عن المقارنة بين بعض العادات الإغريقية والليبية، فيقول : " يبدو أنّ ثوب أثينا ودرعها وتمثيلها، نقلها الإغريق عن النساء الليبيات. غير أنّ لباس الليبيات جلدي، وأنّ عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان. وأمّا ما عدا ذلك، فإنّ الثوب والدرع في الحاليتين سواء ..

واستناداً إلى هذه الإسهامات المبكرة والجادة، يعتقد الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا، أنّ منهج هيرودوت في وصف ثقافات الشعوب وحياتهم وبعض نظمهم الاجتماعية، ينطوي على بعض أساسيات المنهج (الأنثوجرافي) المتعارف عليه في العصر الحاضر باسم (علم الشعوب) وكذلك نجد أنّ أرسطو (348-322 ق.م) كان من أوائل الذين وضعوا بعض أوليات الفكر التطوّري للكائنات الحيّة، وذلك من خلال ملاحظاته وتأمّلاته في التركيبات البيولوجية وتطوّرها في الحيوان .. كما ينسب إليه أيضاً، توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها وأفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والإنسانية.

إنّ الدارس أعمال الفلاسفة اليونانيين يصل إلى معلومة طريفة وذات صلة بالفكر الأنثروبولوجي، وهي: أنّ اليونانيين أخذوا الكثير من الحضارات التي سبقتهم، حيث امتزجت فلسفتهم بالحضارة المصرية القديمة، وتمخّض عنها ما يعرف باسم " الحضارة الهيلينية " تلك الحضارة التي سادت وازدهرت في القرون الثلاثة السابقة للميلاد. وعلى الرغم من هذا الطابع الفلسفي الذي يناقش - إلى حدّ ما - ما تتّجه إليه الدراسات الأنثروبولوجية السوسيولوجية من دراسة ما هو قائم، لا ما يجب أن تكون عليه الأحوال الاجتماعية والثقافية، فإنّ فضل الفكر الفلسفي اليوناني، ولا سيّما عند كبار فلاسفتهم، لا يمكن التقليل من شأنه أبداً .

عند الرومان: امتدّ عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل وأفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية وطبيعتها، وتفسير التباين والاختلاف فيما بينها.. ولكنهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية/ المجردة للحياة الإنسانية، بل وجّهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس. ومع ذلك، لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره كإسهامات أصيلة في نشأة علم مستقلّ لدراسة الشعوب وثقافتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات. ولكن، يمكن أن يستثنى من ذلك، أشعار / كاروس لوكرتيوس / التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية الهامة. فقد تناول موضوعات عدّة عرضها في ستة أبواب رئيسة، ضمنها أفكاره ونظرياته عن المادة وحركة الأجرام السماوية وشكلها، وتكوين العالم .. وخصّص الباب السادس لعرض فكرتي : التطوّر والتقدّم، حيث تحدّث عن الإنسان الأوّل والعقد الاجتماعي، ونظامي الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى وقد رأى بعض الأنثروبولوجيين، أنّ /لوكرتيوس / استطاع أن يتصوّر مسار البشرية في عصور حجرية ثمّ برونزية، ثمّ حديدية .. بينما رأى بعضهم الآخر في فكر لوكرتيوس، تطابقاً مع فكر لويس مورجان L. Morgan - (1818-1881) أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر. وذلك من حيث رؤية التقدّم والانتقال من مرحلة إلى أخرى، في إطار حدوث طفرات مادية، وإن كان مردّها في النهاية إلى عمليات وابتكارات عقلية.. وعلى الرغم من أنّ الرومان اهتموا بالواقع، من حيث ربط السلالات البشرية بإمكانية

التقدّم الاجتماعي والحركة الحضارية، فقد وجدوا في أنفسهم امتيازاً وأفضلية على الشعوب الأخرى. فكان الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى أنّ الرومان إذا أرادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو شأن سلالة، أصدرت الدولة قراراً بمنح الجنسية الرومانية لأي منهما ويبدو أنّ هذا الاتجاه العنصري، وجد في معظم الحضارات القديمة، ولا سيّما الحضارات الشرقية الإغريقية والرومانية والصينية.

عند الصينيين القدماء: يعتقد بعض المؤرخين، ولا سيّما الانثروبولوجيون منهم، أنّه على الرغم من اهتمام الصينيين القدماء بالحضارة الرومانية وتقديرها، فلم يجدوا فيها ما ينافس حضارتهم وهذا الاتجاه نابع من نظرة الصينيين القدماء العنصرية، إذ كانوا يعتقدون – كالرومان – أنّهم أفضل الخلق، وأنّه لا وجود لأيّة حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، بل كانوا يرون أنّهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء .. ولكي يؤكّد ملوكهم هذا الواقع، أقاموا " سور الصين العظيم " حتى لا تدنّس أرضهم بأقدام الآخرين. ولذلك، اهتمّ فلاسفة الصين القدماء، بالأخلاق وشؤون المجتمعات البشرية، من خلال الاتجاهات الواقعية / العملية في دراسة أمور الحياة الإنسانية ومعالجتها، لأنّ معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي، في أي مجتمع، تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، والذي يكشف بالتالي عن طرائق التعامل فيما بينهم من جهة، ويحدّد أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى. وهذا ما يفيد الباحثين في العلوم الأخرى، ولا سيّما تلك التي تعنى بالإنسان .

- الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى: يجمع معظم المؤرخين أن هذه العصور، تمتدّ من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي. وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأوروبية وارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، ولأنّها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأوروبية القديمة (اليونانية والرومانية) وبداية عصر النهضة الأوروبية (عصر التنوير) والانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، وإحياء التراث الفكري القديم، وإبداعات في الفنون والآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، وتتّسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة.

العصور الوسطى في أوروبا: يذكر المؤرّخون أنّه في هذه العصور الوسطى (المظلمة) تدهور التفكير العقلاني، وأدينّت أيّة أفكار تخالف التعاليم المسيحية، أو ما تقدّمه الكنيسة من تفسيرات للكون والحياة الإنسانية، سواء في منشئها أو في مآلها. يضاف إلى ذلك التوسّع في دراسة القانون (جامعة بولونيا) ودراسة الفلسفة واللاهوت (جامعة باريس) ممّا كانت له آثار واضحة في الحياة الأوروبية العامة (السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية) ومهّد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور.

لقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدّة للكتابة عن بعض الشعوب، إلّا أنّها اتّسمت – غالباً – بالوصف التخيلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع. مثال ذلك، ما قام به الأسقف / إسيذور / الذي عاش ما بين (560-636) حيث أعدّ في القرن السابع

الميلادي موسوعة عن المعرفة، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية، تتسم بالسطحية والتحيز. ومما ذكره، أنّ قرب الشعوب من أوربا أو بعدها عنها، يحدّد درجة تقدّمها، فكأما كانت المسافة بعيدة، كان الانحطاط والتهور الحضاري مؤكّداً لتلك الشعوب. ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنّهم من سلالات غريبة الخلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف.

العصور الوسطى عند العرب: وتمتدّ من منتصف القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً. حيث بدأ الإسلام في الانتشار، وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين والازدهار. وقد تضمّنت هذه الحضارة: الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية.

وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم. ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم (البلدان) لياقوت الحموي. وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل "مسالك الأمصار" لابن فضل الله العمري، و "نهاية الأرب في فنون العرب" للنويري.

وإلى جانب اهتمام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران، فقد تميّزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصية، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية.

وهناك من تخصّص في وصف إقليم واحد مثل/ البيروني/ الذي عاش ما بين (362 - 440 هجرية) ووضع كتاباً عن الهند بعنوان "تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة". وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية. واهتم أيضاً بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية، بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس. وأبرز البيروني في هذا الكتاب، حقيقة أنّ الدين يؤدّي الدور الرئيس في تشكيل الحياة الهندية، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وصياغة القيم والمعتقدات. كما كانت لرحلات ابن بطوطة وكتابات خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكياتهم وقيمهم وتقاليدهم. فمما كتبه في استحسان أفعال أهل السودان: "فمن أفعالهم قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه.

أمّا كتاب ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" فقد نال شهرة كبيرة وواسعة بسبب مقدّمته الرئيسة وعنوانها: "في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والمصانع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب". وتعتبر هذه المقدّمة عملاً أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، ولا سيّما العادات

والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد شكّلت موضوعات هذه المقدمة – فيما بعد – اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية.

ومن أهم الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدّمته، والتي لها صلة باهتمامات الأنثروبولوجيا، هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية. فقد ردّ ابن خلدون – استناداً إلى تلك الدعامات – اختلاف البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسية وصفاتهم الجسمية والخلقية، إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضاً عاملاً هاماً في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية. (ابن خلدون، ج1، 1966، ص 291) كما تناول ابن خلدون في مقدّمته أيضاً، مسألة قيام الدول وتطوُّرها وأحوالها، وبلور نظرية (دورة العمران) بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي.

وقد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق والغرب – على حدّ سواء – في العصور الوسطى .. حيث اعتبر ابن خلدون أن التطوُّر هو سنّة الحياة الاجتماعية، وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية.

يقول في ذلك : " إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، وإنّما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول. فعمر الدول عند ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة وتنمو إلى الشباب والنضج والكمال، ثمّ تكبر وتهرم وتتلاشى إلى الزوال.

لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، ودورة الحضارات التي تمرّ بها، فكان بذلك، أسبق من علماء الاجتماع في أوروبا. ولذلك، يرى بعض الكتاب والمؤرّخين، أن ابن خلدون يعتبر المؤسّس الحقيقي لعلم الاجتماع، بينما يرى بعضهم الآخر، ولا سيّما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون، في مقدّمة ابن خلدون بعضاً من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها. وفي أمريكا، أشار /جون هونجيمان / أيضاً في كتابه " تاريخ الفكر الأنثروبولوجي " إلى أن ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية / مارفين هاريس / عن " المادية الثقافية " ونجد أن / هاريس / ذاته، يذكر أن ابن خلدون ومن قبله الإدريسي، قدّما أفكاراً ومواد ساعدت في بلورة نظرية الحتمية الجغرافية، التي سادت إبّان القرن الثامن عشر.

إنّ الفلاسفة والمفكرين العرب أسهموا بفاعلية – خلال العصور الوسطى- في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولا سيّما التنوّع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى. اعتباراً أنها مصادر للمادة الأثنوجرافية التي درست (أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وخلال فترة زمنية محدّدة) ولا سيّما العادات والقيم وأنماط الحياة، فإنّ الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر كعلم جديد

معترف به، لم تكن ذات صلة تذكر بهذه الدراسات، ولا بغيرها من الدراسات (اليونانية والرومانية) القديمة.

- الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية: يتفق المؤرخون على أنّ عصر النهضة في أوربا، بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوروبيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية. وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر.

إنّ هذه التغيرات مجتمعة أدّت إلى ترسيخ عصر النهضة أو ما سمّي (عصر التنوير) وأسهمت بالتالي في بلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطوّر الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني. الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضاراتها، في أوروبا وخارجها، من أجل المقارنات، والتعرّف إلى أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطوريّة معيّنة، بحيث يضع ذلك أساساً لنشأة علم الأنثروبولوجيا.

لعلّ أهمّ رحلة أو (رحلات) استكشافية مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا، ما قام بها / كريستوف كولومبوس / إلى القارة الأمريكية ما بين (1492- 1502) حيث زحرت مذكراته عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها، اتّسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة. وهكذا كان لرحلات كولومبس واكتشافه العالم الجديد (أمريكا) عام 1492 أثرها الكبير في إدخال أوروبا حقبة جديدة، وفي تغيير النظرة إلى الإنسان عامة، والإنسان الأوروبي خاصة، ممّا أثّر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي. وذلك، لأنّ هذه الاكتشافات الجغرافية / الاجتماعية وما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزاتهم وأنماط حياتهم، أظهرت بوضوح تنوّع الجنس البشري، وأثّرت كثيراً من المسائل والدراسات حول قضايا النشوء والتطوّر عند الكائنات البشرية.

لقد تميّز عصر النهضة الأوروبية، بظاهرة كان لها تأثير في توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أنّ المفكرين اتفقوا، على الرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاققت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية. وظهر نتيجة لهذا الموقف الجديد اتّجاه لدراسة الإنسان، عرف بالمذهب الإنساني (العلمي) اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر، حيث اتّجهت دراسة الطبيعة الإنسانية وفهم ماهيتها وأبعادها وفق المراحل التاريخية/ التطورية للإنسان

وقد تبلور هذا الاتّجاه (المذهب) العلمي في الدراسات التجريبية والرياضية، التي ظهرت في أعمال بعض علماء القرن السابع عشر، من أمثال: فرانسيس بيكون - ورينيه ديكارت

واسحق نيوتن (1642-1727) ، وغيرهم. حيث أصبحت النظرة الجديدة للإنسان عل أنه ظاهرة طبيعية، ويمكن دراسته من خلال البحث العلمي والمنهج التجريبي، ومعرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطور الإنساني والتقدم الاجتماعي. وهذا ما أسهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي، وأدى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا، خلال عصر التنوير.

أما بالنسبة للدراسات الأثنوجرافية (دراسة أسلوب الحياة والعادات والتقاليد) والدراسات الأثنولوجية (دراسة مقارنة لأساليب الحياة للوصول إلى نظرية النظم الاجتماعية)، والدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، فثمة أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء. وقد تكون محاولة الرحالة الإسباني (جوزيه آكوستا في القرن السادس عشر، لربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الأثنوجرافية والتنظير بشأنها. وظهر إلى جانب آكوستا / الإسباني في الدراسة الأثنوجرافية عن الشعوب البدائية، عالم الاجتماع الفرنسي، ميشيل دي مونتاني الذي أجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا المكتشفة، والذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوروبا. وبعد إن جمع منهم المعلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي، خرج بالمقولة التالية: "إنه لكي يفهم العالم فهماً جيداً، لا بدّ من دراسة التنوع الحضاري للمجتمعات البشرية واستقصاء أسباب هذا التنوع" ويكون بذلك قد طرح فكرة (النسبية الأخلاقية).

ومما قاله في هذا الإطار ما كتبه في مقاله الشهير عن "أكلة لحوم البشر" وجاء فيه: " يبدو أن ليس لدينا أي معيار للحقيقة والصواب، إلا في إطار ما نجده سائداً من آراء وعادات على الأرض التي نعيش عليها (أوروبا)، حيث نعتقد بوجود أكمل الديانات، وأكثر الطرائق فاعلية في الحصول على الأشياء.

إنّ هؤلاء الناس (أكلة لحوم البشر) فطريون / طبيعيون، مثل الفاكهة البرية. فقد بقوا على حالهم البسيطة، كما شكّلتهم الطبيعة بطريقتها الخاصة، وتحكّمت فيهم قوانينها وسيّرتهم ويأتي القرن الثامن عشر، ليحمل معه كتابات جان جاك روسو، التي احتلّت أهمية كبيرة لدى مؤرّخي علم الأنثروبولوجيا، وذلك بالنظر لما تضمنته في دراستها الأثنوجرافية للشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الغربية / الأوروبية. لقد تميّزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند روسو بالتجرّد والموضوعية، حيث تجلّى ذلك في نقد بعض القيم والجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسان بعض الطرائق الحياتية في المجتمعات الأخرى. وفي هذا الإطار، يعدّ كتابه "العقد الاجتماعي" من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي.

وكان إلى جانب روسو، البارون دي مونتسكيو، الذي وضع كتاب (روح القوانين) وأوضح فيه فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة. وسادت هذه الفكرة الترابطية في أعمال الأنثروبولوجيين في أوائل القرن العشرين، ولا سيّما عند الأنثروبولوجيين الإنجليز، حيث انتقل اهتمام مونتسكيو بدراسة النظم السياسية، وتأثير

المناخ على نوعيّة الحضارة أو الثقافة – فيما بعد – إلى الكتابات الأنثروبولوجية، وشكّل مجالاً واسعاً للدراسات الأنثروبولوجية

أما في ألمانيا، فقد تبلور الفكر في عصر التنوير، عن التفوّق العنصري والنزعة القوميّة الشوفينيّة (التعصبيّة). وظهر ذلك واضحاً في كتابات كلّ من / جورج هيجل (1770-1770-1770) وجوهان فخته (1762-1814)، حيث جعل الشعب الألماني، الشعب الأمثل والأنقى بين شعوب العالم. أما كتابات جوهان هيردر (1744-1803) فجاءت لتعزّز فكرة التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي، والتفاوت فيما بينها بمدى التأثير بمظاهر المدنية، وفي تمثّلها لمقومات الحضارة. وعلى هذا الأساس، يذهب هيردر إلى أنّ ثمة سلالات بشرية خلقت للرقى، وسلالات أخرى قضى عليها بالتأخّر والانحطاط. لكن هذا الاتجاه العنصري في الدراسات الأنثروبولوجية، واجه انتقادات كبيرة في بداية القرن العشرين، حيث برزت فكرة أنّه لا يجوز أن تتخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، وأنّ العلاقة بين الجنس البشري واللغة، لا يجوز أن تكون أساساً لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متميزة. وقد نقض ذلك ودحضه، فيما بعد، الفكر الأنثروبولوجي القائم على المشاهدة الواقعية، والدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى. وهنا يمكن القول: إنّ الأنثروبولوجيا المتحرّرة التي ظهرت اتّجاهاتها وقضاياها الإنسانية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تجد – ولا شكّ – في الكتابات الفرنسية في عصر التنوير، جذوراً أو أصولاً نظرية لمنطلقاتها الفكرية. إنّ الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوروبا في عصر التنوير، وتجلّى في كتابات العديد من الفلاسفة والباحثين والمؤرّخين، شكّل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا، الذي بدأ يستقل بذاته مع بدايات القرن العشرين، ويتبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته.

نظام القرابة

مقدمة: لا يمكن لأي مجتمع أن يوجد أو يستمر بدون تفاعل أفراد ، أي بدون علاقات اجتماعية تربط بينهم وتساعدهم على إشباع حاجاتهم الأولية والثانوية ، وتفاعل أفراد المجتمع الواحد يتم في إطار ضوابط السلوك الاجتماعي وذلك فيما يصطلح عليه النظم الاجتماعية التي تمثل أنماطاً للعلاقات الاجتماعية ومن مهام الأنثروبولوجي الاجتماعي أنه يقوم بتصنيف أنماط العلاقات الاجتماعية في مجتمع ما ، ومن النظم الاجتماعية نظام القرابة ، فماذا يقصد بنظام القرابة ؟ والتسلسل القرابي ؟ وأنواع الجماعات القرابية ؟

تعريف القرابة: يشير مصطلح القرابة إلى العلاقة الدموية بين جماعة إنسانية معينة ، ويعرف الكثير من علماء الأنثروبولوجيا القرابة بما يلي :

- أن القرابة جماعة اتحدت عن طريق روابط الدم أو الزواج ، وتعتبر القرابة هي علاقة القرابية جماعة متصلة عن طريق قرابة العصب وعليه فإن القرابة هي علاقة اجتماعية تقوم على ارتباط أسري محدد ثقافياً ، وتقوم ثقافة المجتمع بتحديد أشكال العلاقات الأسرية التي تعتبر ذات أهمية خاصة ، وكذلك الحقوق والالتزامات التي تقع على كاهل عدد من الأشخاص الأقارب وصور التنظيم الموجودة بينهم²².
- القرابة صلة دموية متعددة المستويات يتعارف عليها الناس ، تتدخل في صياغة الأنظمة الاجتماعية المختلفة بناء على طبيعة المجتمع القائم ، فهي ذات نفوذ كبير في المجتمعات البدائية أو التقليدية ، وينقص نفوذها في الجماعات المتطورة أو المركبة بسبب تقسيم العمل وتخصص الوظائف²³.

التسلسل القرابي: كل مجتمع يوجد به نظام قرابي ولا يوجد أي مجتمع إنساني بدون نظام يحدد العلاقات القرابية بين أفراد ، ويطلق على القواعد التي تحدد أعضاء الجماعة القرابية الدموية

²² محمد حسن غامري - مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة "علم الإنسان" - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1991 ، ص 86.

²³ عامر مصباح : المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا - دار الكتاب الحديث - القاهرة 2009 ، ص 194.

لأعضاء مجتمع ما – قواعد التسلسل القرابي وتختلف تلك القواعد بصورة كبيرة من مجتمع لآخر²⁴ وتتلخص أهم هذه القواعد في :

1- **التسلسل القرابي الأبوي** : كل المجتمعات الأبوية تحدد القاعدة التي تحدد أقارب كل المواليد

الجدد وعليه وتبعاً لتلك القاعدة فإن المولود بغض النظر عن جنسه ذكراً أو أنثى فإنه ينتمي ويلحق بالجماعات القرابية الدموية التي ينتمي وينتسب إليها والده وتبعاً لذلك فإن هذا المولود يصبح ينتمي بالضرورة إلى هذه الجماعات القرابية التي تمثل وحدة تعاونية دفاعية ويعود إليها الفرد كلما أصبح في حاجة إليها.

2- **التسلسل القرابي الأموي** : في هذا النمط من التسلسل القرابي تحدد القاعدة أقرباء الطفل بأن

الجماعة القرابية للأم هم أقربائه وعليه فأهل أبيه ليسوا أقربائه وبذلك يتسلسل خط القرابة عن طريق الإناث وليس الذكور²⁵.

3- **التسلسل القرابي الثنائي الاختياري** : إن معظم المجتمعات التي تأخذ بها النظام تحدد القاعدة

الجماعة القرابية التي ينتمي إليها الطفل الأقارب المقربين من الأب والأم مثل العم والخال والجد وتطبق المجتمعات الأوروبية هذا النظام مع وجود اختلافات بين هذه المجتمعات ، لكن الغالب في كل هذا هو حرية اختيار الأقرباء الذين يتعاون معهم الفرد.

4- **التسلسل القرابي الثنائي الإجباري** : تحدد قاعدة التسلسل القرابي الثنائي

الإجباري الجماعة القرابية التي ينتمي إليها الفرد والتي تجمع بين الجماعة القرابية الأبوية لأبيه والجماعة القرابية الأمية لأمه وتختلف هذه القاعدة القرابية عن القواعد السابقة في أنه في هذه القاعدة أن الشخص ليس حراً في اختبار أقاربه الذين تربطه بهم رابطة قوية . والخلاصة أن قواعد التسلسل القرابي تحدد نطاق الجماعة القرابية الدموية التي ينتمي إليها الفرد وتوجد عدة أشكال من هذه الجماعات فيها :

1- **النسب** : يتكون النسب من الأشخاص الذين يستطيعون تتبع تسلسلهم القرابي سواء عن

طريق الأب والذي يطلق عليه النسب الأبوي أو عن طريق الأم والذي يسمى النسب الأمي.

²⁴ محمد الخطيب – الأنثروبولوجيا الاجتماعية – دار علاء الدين للنشر – دمشق 2008 ، ص 113.

²⁵ محمد الخطيب – المرجع السابق ، ص 113.

2- في حالة عدم تذكر الأشخاص وتتبع تسلسلهم القرابي لاعتبارات عديدة كثرة عددهم وامتداد جذور جماعتهم فإن الجماعة القرابية لا تسمى نسبا بل يطلق عليها بطن وتصنيف المجتمعات الأقارب إلى فئات حصرها كروبر فيما يلي :

- اختلاف الجيل.
 - اختلاف أساس العلاقة القرابية (علاقة الدم ، علاقة زواج ، ... إلخ).
 - الاختلاف بين علاقة القرابة الرأسية المباشرة والقرابة الأفقية المحاذية.
 - اختلاف نوع الأقارب.
 - اختلاف نوع الشخص الذي عن طريقه تكونت علاقة القرابة.
- وتقوم الاصطلاحات القرابية بوظيفة تنظيمية للسلوك الاجتماعي وبالتالي تؤدي إلى تماسك البناء الاجتماعي واستمراره ، إذ يدل كل اصطلاح على دور معين يتمثل في مجموعة محددة من أنماط العلاقات الاجتماعية²⁶.

أنواع الجماعات القرابية :

تصنف القرابة إلى :

- 1- العائلة الأولية : يعرف هذا النوع من الجماعة القرابية بأنها : جماعة تتكون من الزوجين وأبناؤهما غير المتزوجين ، وينتمي الفرد في العادة إلى أسرتين نوويتين ، الأسرة النووية التي تربى فيها وتعرف باسم أسرة التوجيه والثانية التي تقوم فيها بدور الأب وهي أسرة التكاثر²⁷ والتفاعل داخل هذه الأسرة ينتج ثلاثة مستويات من العلاقة هي :
 - العلاقة بين الوالدين والأبناء وتقوم على الدور الوالدي في التنشئة الاجتماعية وإشباع الحاجات وتلقين أنماط السلوك الاجتماعي .
 - العلاقة بين الإخوة داخل الأسرة القائمة على نمط معين من التفاعل كالغيرة والتنافس ضد الآخر.
 - العلاقة بين الزوجين القائمة على الاهتمام بالأبناء وتلبية حاجاتهم وكذا الاتصال الأسري والجنسي بين الزوجين.

2- العائلة المركبة : يعتبر هذا النوع من العائلات تطور للعائلة الأولية وما يحول العائلة الأولية إلى مركبة هو زواج الأبناء وإنجابهم للأبناء وهناك من يسمى هذا النوع من العائلات بالعائلة

²⁶ محمد الخطيب – المرجع السابق ، ص 117.

²⁷ عامر مصباح – المرجع السابق ، ص 207.

الممتدة . وما يميز هذا النوع من العائلات أن كل أسرة تخضع إلى تقاليد وعادات النظام الاجتماعي القائم في المجتمع.

3- **الأسرة المعيشية** : يشير هذا النوع من الجماعة القرابية إلى وجود تنظيم اقتصادي واجتماعي معين يقيم في بيت واحد أو مجموعة مساكن متلاصقة يقوم بمهام اقتصادية واجتماعية ويساعد نفسه بنفسه على البقاء والحياة وينتشر هذا النوع من التنظيم القرابي في المجتمعات البدائية المترابطة والنسب ذات الزواج الداخلي²⁸.

ويتميز هذا النوع من الأسر بمجموعة من الخصائص منها :

- عيش الأبناء الذكور بعد الزواج مع أبيهم في بيت الأسرة الكبيرة .
- عيش البنات بعد الزواج في الأسرة المعيشية أو المشتركة لأزواجهن²⁹.
- 4- **البدنة** : يشير هذا المصطلح إلى وجود أسر مرتبطة مع بعضها البعض عند أب أكبر مشترك تحمل اسمه وتعلن انتمائها إليه . ويعرف محمد الجوهري البدنة بأنها عبارة عن كيانات محددة بعضها ببعض تؤدي وظائف ذات أهمية متفاوتة ، ولكنها قد تكون فائقة في أغلب الأحيان . فهي تؤدي من ناحية بعض الوظائف التي تؤديها لأسر النووية أو المشتركة في أحوال أخرى . كما قد تؤدي من ناحية أخرى نفس وظائف العشيرة . وقد توجد البدنات في بعض الأحيان أيضا كأجزاء من عشائر ولو أن العلاقة بين أفراد العشيرة قد تكون في الغالبية العظمى من الأحوال علاقة افتراضية أو ترجع إلى سلف أسطوري معين³⁰.

5- **العشيرة** : يرتبط أفراد العشيرة فيما بينهم بروابط روحية أو طوطمية بانتمائهم إلى سلف وحتى ولو لم يكن له وجود في الواقع . وما يميز جماعة العشيرة عن غيرها هو الزواج الخارجي وبذلك يمكن للشخص أن يكون له عشيرتان عشيرة تنسبه إلى أبيه والأخرى لأمه، أي هناك عشيرة أبوية وعشيرة أمومية .

6- **البطون** : تتشكل البطون من اتحاد مجموعة عشائر ويسود النمط من التنظيم القرابي المنتمية إلى جد أكبر حيث مع تزايد أبناء العمومة وتكثر فروعهم مع الزمن يتحدثون فيما بينهم بشكلوا بطنا ودافع ذلك المصلحة.

²⁸ عامر مصباح - المرجع السابق ، ص 207.

²⁹ محمد جوهري - المرجع السابق ، ص 229.

³⁰ محمد الجوهري - نفس المرجع ، ص 229.

7- **القبيلة** : تعد القبيلة من أشهر الجماعات القرابية وأكثرها انتشارا في جميع مناطق العالم وأكثرها شهرة بالنسبة لكل شخص . ونجد القبيلة في الكثير من الأحيان وحدة تحليلية ليس في علم الأنثروبولوجيا فقط وإنما في العديد من التخصصات العلمية الأخرى كعلم الاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية . ويكثر تأثير القبيلة على أفرادها خاصة في المجتمعات التقليدية وحتى في تلك المجتمعات القديمة التي تطورت .

دور القرابة في الحياة الاجتماعية : علاقة الأب والابن : لا تبنى هذه العلاقة عن الغريزة والاعتقاد فقط بل على أسس اجتماعية حضارية أيضا ، فالأبوة يمكن أن تكون بيولوجية أو اجتماعية ، سلطة الأب المعروفة لا تمارس عند كل مجتمع بل تختلف اختلافات كبيرة بين سلطة أبوية قوية وبين عدم وجود سلطة على الإطلاق ، ويلاحظ في كثير من المجتمعات البدائية وجود وشائج وعلاقات قوية بين الابن والأم ، أو بين البنت والأب أكثر من العلاقات المقابلة .

أ- **علاقة الأخوة** : يلاحظ وجود علاقة احترام متبادل بين الأخ وأخته وخاصة بعد مرحلة البلوغ حيث نجد تباعدا كبيرا بينهما تجنباً للمحارم ، أما العلاقة بين الإخوة من نفس الجنس فهي علاقة الرفاق القوية مع احترام كبير السن .

ب- **علاقة الزوج والزوجة** : غالبا ما تكون علاقة رسمية فالزواج عادة عبارة عن ترتيبات تحدث بين عائلتين ونادرا ما يكون نتيجة علاقة عاطفية وفي المجتمعات التي تسودها التنظيمات العشائرية نجد الترابط القرابي أقوى أحيانا من علاقات الزواج ، وفي أحيانا أخرى قد تتحول العلاقة الزوجية إلى علاقة عداوة وانفصال تام في المأكل والنوم وتقتصر العلاقة على الضروريات فقط.

ت- **علاقة العمومة والخوولة** : في المجتمعات الأبوية نجد العم يعامل معاملة الأب ولا يصبح للخال مثل سلطة الأب ، أما في المجتمعات الأمومية فإن سلطة الخال تتعاضد وتصبح أكبر من سلطة الأب على الأبناء ولا يصبح للعم أية سلطة على أبناء أخيه ، وفي عدد من المجتمعات تصبح العلاقة وثيقة بين الخال وأبناء أخته لتبلغ مرحلة الصداقة والمعاونة وتنشأ بين الطرفين علاقة أقرب ما تكون إلى التآخي تنتفي فيها العلاقة الرسمية.

ث- **علاقة الأجداد والأحفاد** : في غالبية المجتمعات نجد علاقات التعاطف والود والحماية والمساعدة تميز الارتباطات بين الأجداد وأحفادهم.

ج- **علاقة أبناء العمومة والخوولة** : تحدد هذه العلاقة على أساس تصنيف نمط القرابة السائدة في المجتمع وفي الغالب نجد أفراد القرابة المتوازية (أبناء العم وأبناء الخالة) يعاملون معاملة الإخوة والأخوات بينما نجد علاقة متباعدة مع أفراد القرابة المتقاطعة (أبناء العم والخال) وأحيانا يمكن الزواج من هؤلاء الأفراد.

ح- **العلاقة مع الأحماء والحموات** : تخضع هذه العلاقة إلى متغيرات كثيرة تتراوح عند المجتمعات المختلفة بين الاحترام والتبجيل ، أو الكره ورفض إقامة أية علاقة مع الأصهار وقد قام الأنثروبولوجي الأمريكي " آدم سون هوبيل " بدراسة تحليلية لمائة حالة في أمريكا وكانت نتائج هذه الدراسة مفيدة وممتعة عن العلاقة الاجتماعية والنفسية مع الأصهار ، وقد وجد أن 94 % من النكت موجهة ضد الحماة وأن 2/3 الرجال يتمنون موت الحماة وأن 2/3 الحموات أعربت عن علاقة عدوانية اتجاه أزواج بناتهن أو زوجات أولادهن كذلك كان 20 % من الحالات يرفضون وجود حماتهم معهم.

مفهوم الزواج :

- 1- **تعريف الزواج** :توجد العديد من تعاريف الزواج تدور كلها حول طبيعة العلاقة الجنسية وما يترتب عليها من حقوق وواجبات بين الرجل والمرأة نذكر منها ما يلي :
- هو تنظيم اجتماعي للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة يرتب قبلهما التزامات متبادلة ومسؤوليات اجتماعية .
- الزواج هو علاقة تتم بين امرأة وشخص أو أكثر وينتج عنها إنجاب المرأة للأطفال وفقا لشروط معينة تقرها هذه العلاقة ومن ثم يتم منح الأطفال حقوق المكانة الخاصة بين أعضاء الجماعة³¹.
- الزواج هو تنظيم اجتماعي يركز على الأبوة الاجتماعية عن طريقه يمنح الطفل مكانه في المجتمع ويستمد حقوقه القانونية³².
- الزواج هو عبارة عن مجموعة من الأنماط الثقافية لإقرار الأبوة وتهيئة الأساس المستقر للعناية بالأطفال وتربيتهم ، فالزواج هو بالفعل الوسيلة الثقافية الأساسية لضمان استمرار الأسرة والجماعات الأخرى القائمة على القرابة³³.

³¹ يحي مرسى عيد بدر : أصول علم الإنسان ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط1 ، 2007 ، ص 235.

³² عباس أحمد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار القلم للطباعة والنشر ، دبي ، ط2 ، 1983 ، ص 63.

³³ محمد الجوهري : الأنثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات عملية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ط3 ، 1982 ، ص 272.

2- أنواع الزواج :

أ- أنواع الزواج وفقا للجماعة القرابية التي ينتمي إليها الزوجان : وفيه :

- **الزواج الداخلي :** وفيه يتعين على الرجل أن يتزوج من نفس الوحدة القرابية التي ينتمي إليها ، ويزدهر هذا النوع من الزواج في المجتمعات التي تمثل فيها التمايزات الاجتماعية أهمية كبيرة كطبقة النبلاء ، في أوروبا قديما ، وحاليا لا يتزوج رجل من طبقة أرستقراطية من امرأة من عامة الناس ، كما أن عوامل الدين والقومية والمستوى التعليمي ، واللغة كلها عوامل تحبذ الزواج من داخل الجماعة التي ينتمي إليها الزوج.

- **الزواج الخارجي :** وفيه يتعين على الرجال أن يتزوجوا من خارج الوحدة القرابية التي ينتمون إليها ، ومن ثم يعتبر الزواج من داخل الجماعة القرابية بمثابة زنا المحارم ، فعلاقات الدم من الممكن أن تمتد لكل أعضاء الوحدة القرابية أو لكل الذين يعيشون في نفس القرية وذلك طبقا لما يقتضي به العرف السائد أو يمكن أن تفرضه الجماعات الدينية كالكنيسة الكاثوليكية التي تمنع زواج أولاد العمومة ، وعموما فإن هذا النمط من الزواج يؤدي وظيفة متكاملة حيث يؤكد على العلاقات الاجتماعية بين الجماعات التي توجد بينها احتمالات وجود العداوات .

ب- أنواع الزواج وفقا لأسلوب اختيار الزوجة :

- **الزواج بالتبادل :** ويوجد هذا النظام في بعض المجتمعات التي تنظر إلى زواج إحدى نسائها على أنه يمثل خسارة لها ، ومن ثم يجري تعويض خسارتهم من خلال تزويج أحد شبابها والحصول على زوجة تعوض من فقدته جماعته . وعموما يوجد هذا الشكل من الزواج بين المجتمعات التي يسودها نظام الزواج الخارجي وكان يسمى لدى عرب الجاهلية زواج الشعار وفيه كان الرجلان يتبادلان ابنتيهما من غير مهر .
- **الزواج بالرضا المتبادل :** وهذا الشكل أقل انتشارا في المجتمعات البدائية ويوجد بين سكان جزر ساموا وبين بعض قبائل شمال أمريكا مثل هنود "الكراو" ولكن أصبح هو الشكل السائد بين معظم شعوب العالم الآن ³⁴ .

³⁴ يحيى مرسي عيد بدر ، مرجع سابق ، ص ص 241 - 245 .

- **الزواج بالأسر (النسبي) :** يوجد هذا النوع بين الشعوب شبه المحاربة حيث كانوا يتخذون لهم بعض الزوجات من بين النساء الأسيرات كما كانوا يقومون بمباريات للمصارعة للفوز بالنساء ومن تم كانت القبائل الأضعف تخاطر بفقدان نسائها وكان ذلك معناه استمرار الحروب والانتقام والأخذ بالثأر ولكن المرأة التي يتم الحصول عليها بهذه الطريقة كانت تعتبر أقرب إلى الجارية منها إلى الزوجة ذات المكانة .
- **الزواج بالشراء :** يعتبر النساء بمثابة جاريات أو كعناصر يمكن توريثها ونقلها من مكان لآخر ، كما تنتظر الكثير من المجتمعات للمهر كثمن للعروس وهو يعتبر شكلا من تعويض الوالدين لخسارة ابنتهما من خلال الزواج ، وقد يكون المهر ضمان لاستمرار المعاملة الحسنة للزوجة في منزل زوجها .

ت- أنواع الزواج وفقا لنوع الطرف الآخر :

- **زواج الرجل بالمرأة :** نمط شائع في الثقافات الإنسانية وتفرضه الطبيعة البيولوجية والغرائز التي فطر عليها البشر في كل مكان وزمان وتمثل شيئا طبيعيا.
- **زواج المرأة بالمرأة :** يوجد في بعض القبائل الإفريقية حيث ترغب المرأة في أن تلعب دور الرجل في الحياة الاجتماعية وتختار إحدى الفتيات لتتزوجها وتقدم لأسرتها المهر لكن المرأة الزوج تعتبر أبا لهم ، وعندما تكون المرأة ثرية (المرأة الزوجة) فإنها تتزوج عدة زوجات ، وهي هنا الزوج القانوني ، وهي أبا لكل الأولاد ويحملون اسمها و ثروتها ويخاطبونها بأبي.
- زواج الرجل بالرجل :** نجد بعض أفراد قبيلة " الكواكيوتل " أن الرجل الذي يرغب في الحصول على الامتيازات الخاصة برئيس ما يمكن أن يتزوج أحد الورثة الذكور للرئيس وإذا لم يكن لدى الرئيس ورثة فإن الرجل يمكنه أن يتزوج بالجانب الأيمن من الرئيس أو الجانب الأيسر
- نظرية القرابة والتنظيم الاجتماعي عند " كلود ليفي ستروس " :**
- يرى بارنز أن التنظيم الاجتماعي هو الجهد الذي يبذله الإنسان لتحقيق أهداف معينة تحقق له في العادة حاجات ضرورية وله معنيان :
- أ- **وظيفي :** ويقصد به الجمهور الجماعية الإنسانية لتحقيق أهداف مطلوبة كتربية الأطفال وتوزيع السلع.

ب- **بنائي** : وهو ما ينشأ عن الجهود الوظيفية من جماعات لتنفيذ هذه الأنواع كالأسرة لتربية الأطفال والجماعات الاقتصادية لتوزيع السلع³⁵.

1- **حياته :**

ولد كلود ليفي ستروس عام 1908 في بلجيكا في عائلة يهودية يعمل عائلها رساما ، وفي طفولته كانت تثير خياله قصص وحكايات المكتشفين الأوائل والهنود ، كما كان يمضي الشطر الأكبر من وقته في جمع الموضوعات الغريبة والشاذة ، وفي فترة شبابه نما عصفه للطبيعة ، وخلال الحرب العالمية الأولى أمض بعض الوقت بمنزل جده بمدينة فرساي ، وفي عام 1920 التحق بجامعة باريس لدراسة القانون ، ولكنه سرعان ما فقد حماسه لدراسته ، بل لقد بدت لديه الدراسة القانونية دراسة غير علمية ، ومن هنا كان اتجاهه إلى دراسة الفلسفة فحصل على ليسانس الفلسفة من جامعة السربون. وفي عام 1933 قرأ ليفي ستروس للمرة الأولى كتاب المجتمع البدائي لمؤلفه "روبرت لوي" وهنا اكتشف شيئا لم يعهده في دراسته الفلسفية السابقة ومن هنا كان قراره بأن يصبح عالما في الأنثروبولوجيا . وعندما عرض عليه في عام 1934 منصب أستاذ لعلم الاجتماع بجامعة "ساوبالو" كان قبوله للوظيفة حماسيا . واستقال ليفي ستروس من جامعة "ساوبالو" عام 1938³⁶. رجع سنة 1948 إلى بلاده ونال شهادة الدكتوراه في معالجة المسائل النظرية حول القرابة، وفي سنة 1958 عين مديرا للدراسات في المدرسة التطبيقية للدروس العليا ، كما عين أستاذ لعلم الإنسان الاجتماعي في كلية فرنسا سنتي 1959 و 1982 ، كما عمل عضوا في الأكاديمية الفرنسية التي انتخب عضوا فيها سنة 1973 . وتوفي سنة 2009 ، ومن مؤلفاته حياة هنود مبيكوار العائلية والاجتماعية 1984 ، المداران البائسان 1955 ، علم الاجتماع وعلم الإنسان 1950 ، مفهوم في علم السلالات 1952 ، البنى الأولية للقرابة 1949

2- **نظرية القرابة عند " ليفي ستروس:**

إن نظرية " ليفي ستروس " في القرابة تعتمد أساسا على مبدأ النظر في كافة أشكال التنظيم الاجتماعي ونظم الزواج على أنهما تعددت وتنوعت واختلفت من مجتمعات وثقافات إلى أخرى ، إنما تعتمد جميعها على قوانين عقلية وكونية الطابع وهي تتحكم في موضوع القرابة والزواج مثلما تتحكم في اللغة وبناء عليه فإن " ليفي ستروس " ينظر إلى الزواج بوصفه معبرا في جوهره عن وجود نسق

³⁵ نبيل عبد الهادي : علم الاجتماع التريوي ، دار اليازوري العلمية ، الأردن ، دط ، 2007 ، ص ص 98-99 .

³⁶ مجدي الجزيري : البنوية والتنوع البشري وكلود ليفي ستروس ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الإسكندرية ، ط3 ، 2002 ، ص ص 17-25.

الاتصال يتحكم على المستوى العقلي اللاشعوري في العلاقات القرابية وفي مؤسسة الزواج مثلما يتحكم في ميادين أخرى كاللغة والاقتصاد والسياسة وحتى السكن ويربط " ليفي ستروس " الاتصال باعتباره نسق بعدد آخر من المفاهيم مثل المبادلة والتبادل .

ويرى "ستروس" أن الاتصال عملية عقلية مثل التصنيف الذي يقوم به العقل في مجال اللغة ، وهو يقوم به العقل أيضا في مجال تعامله مع عناصر الطبيعة والمجتمع ، فاللغة ما هي إلا نسق من الاتصال يتم من خلاله تبادل الرسائل أو الشفرات الخاصة بهذه العناصر ، أي أن اللغة ما هي إلا بمثابة الحاجة لدى الإنسان لإطلاق الأسماء على تلك العناصر التي يقوم بعملية تصنيفها بشكل يومي وذلك حتى يستطيع تنظيم عملية اتصاله معها . فالزواج حسب هذا التصور يتم وفق نسق من الاتصال حيث الإنسان يدخل عبره في علاقات اتصال بموجبها اختياره لمن يستطيع أو لا يستطيع أن يتزوج بهن ، وإن جميع مبادئ الاختيار في الزواج إنما تتم برأي "ستروس" وفق تحكم البنى العقلية اللاشعورية والذي يعتبر نسق الاتصال أحد أركانها الأساسية³⁷.

3- البنيوية في فكر " ليفي ستروس " :

البنيوية هي نظرية وطريقة تحليل تعتبر أن جملة من المعطيات قادرة بأن تؤسس لبنية ، هذه البنية تشكل نظاما متماسكا ترتب عناصرها بعلاقات تبعية متبادلة . تعتبر البنيوية موقفا داخل العلوم الإنسانية لا يهتم بالمحتويات الذاتية والمدلولات التي يربطها البشر بالأحداث للتمكن من وصف موضوعي للبنيات في ميدان الألسنية على سبيل المثال ، لا يعرف المعنى من خلال العلاقة بين الكلمة والشئ ولكن من خلال العلاقة ضمن نظام من العلامات (المحتوى والمدلول ، والحاوي أو الدال) يمكن أن نعتبر البنيوية خليطا أو عملية تركيب لهياكل وبنيات بغض النظر عن العلاقة بالتاريخ لا تحتوي البنية على مكون مميز وخاص ، بل هي ذاتها المحتوى إذ ما قاربناها في تناسقها المنطقي وتنظيمها وهي خاصية للواقع لقد امتدت أعمال المفكر " كلود ليفي ستروس " على عقود وقد طرقت ميادين ومواضيع شتى وهذا ما يفسر إلى حد بعيد ثرائها واحتوائها على معلومات قد نعود لها حتى وإن لم نوافق المفكر في اتجاهاته الفكرية وطرق بحثه ، وأهم ما أكدت عليه البنيوية وأفكار ليفي ستروس هي تبعية الذات لنظام المعاني (المعنى الاجتماعي) السابق لها دائما. لقد طور " ليفي ستروس " بحوثه لدراسة بعض الظواهر مثل علاقات القرابة والتحالف في مختلف المجتمعات .

³⁷ عبد الله عبد الرحمن يتيم : كلود ليفي ستروس قراءة في الفكر الأنثروبولوجي ، بيت القرآن ، البحرين ، ط1 ، 1998 ، ص ص 49-50.

أسس " كلود ليفي ستروس " مدرسة البنيوية وبالتحديد الأنثروبولوجيا البنيوية في فرنسا. وقد تبنت هذه المدرسة مفهوم الكلية الثقافية في بعد جديد (جملة الأنظمة الرمزية من كلام ولغة ومؤسسات وقوانين عائلية واقتصاد وفنون وعلوم وأديان). رغم أن " ليفي ستروس " قد درس بالولايات المتحدة الأمريكية وتأثر بالأنثروبولوجيا البنيوية هناك إلا أنه تميز عن هذه المدرسة بتأييده على سنكرونية أو تزامنية خاصة تتجاوز المقاربة الخاصة بثقافات أي تتجاهل تباينات ثقافية وتعتبرها جزءا من كل واحد

لقد طبق " ليفي ستروس " النموذج اللغوي على المجتمع علما بأن اللغويين البنيويين يفسرون تطور اللغة بربطها بتطور المجتمع فهم يميزون بين اللغة كوسيلة تواصل وتخطب وبين نظام العلامات الذي يشكل بنية ، فالمعنى من الكلمة لا يرتب بمدى إحالتها لموضوع أو شيء بل بالعلاقة التي تحويها مع الكلمات الأخرى المكونة للغة . طبق " ليفي ستروس " دراساته على نظام القرابة فكما هي الحال بالنسبة للغة لا يبنني هذا النظام على أطراف بل على زواج من العلاقات (زوج ، أب ، ابن ، أخت ، ... الخ) والقرابة هي نظام تواصل هي نظام اعتباطي للتمثيلات لا يعتمد العنصر البيولوجي بل التحالفات ، ومن هنا نفهم قواعد القرابة بصفتها لغة وتبادل للعلامات والنساء طبق " ليفي ستروس " نفس المقاربة على الأسطورة ونفى أن يكون الفكر الأسطوري فكرا ما قبل منطقي أو أخط من المنطق بل فكرا منطقيا على مستوى الحس ، وتكمن البنيوية ونشاطها في التنظيم الذي يخلق النظام رغم كل أشكال الوعي الذاتي³⁸.

4- التحليل البنيوي للقرابة عند " ليفي ستروس " :

لقد استخدم " ليفي ستروس " المنهج البنيوي في تحليله للنظام القرابي للوصول إلى البنية الكلية التي تحكم هذا النظام ومن تم الوصول إل القانون البنيوي ، فلو أخذنا الأسرة مثلا كوحدة قرابية وهي تقابل الجملة في اللغة فإن اختيار الأسرة لم يكن اعتباطيا أو لأجل التمثيل ، فالأسرة تعد المظهر الحقيقي للنظام القرابي ، فهي كما نعرف تتكون من علاقات بين وحدات (ألفاظ) والجملة تتكون من علاقات بين وحدات أو (الكلمات)، إن وحدات الأسرة هي (أب ، ابن ، أخ ، أخت) لدى "ستروس" ، ولكن لو تمثلنا الأسرة بهذا الشكل (أب ، أم ، ابن ، بنت (أولاد))، إن النظام القرابي هنا حسب ستروس مزود بنظام تقابلي (أب/أم) ، (أخت/أخ) ومجموعة من التقابلات الأخرى.

هذا النظام الثنائي يحقق التمايزات الممكنة بين كل لفظة وأخرى ، إضافة إلى موقف هذه الوحدات (الألفاظ) من بعضها البعض ، كما أنه يعطي الدلالة لكل وحدة من هذه الوحدات ، ويضيف عليها المعنى المحدد ، فالسؤال هنا كيف تكونت الأسرة البسيطة ؟

تأتي هنا إلهامات ستروس بعد أن يفكر مليا يخرج بهذه النتيجة حيث يقول لابد من وجود شخص – أب أو خال – يقوم بإعطاء امرأة إلى ذلك الرجل ليتزوجها ، ويرى ستروس أن ذلك أخ الزوجة (الخال) وليس (الأب) لأسباب موضوعية أو ومنهجية ثانيا.

ولكن من حقنا أن نتساءل لماذا لا يتم العطاء أو المبادلة من جانب النساء ؟

إلا أن ستروس يجيب عن ذلك وقد يكون محق أنه في المجتمع البشري الرجال هم الذين يبادلون النساء وليس العكس .

فالخال هو الذي يتنازل عن امرأة يهبها لذلك الرجل ويتزوجها ويكون بدوره الأولاد والأسرة والقرابة ، والخال هو البنية الأساسية لوحدات الأسرة ولللاقات بين هذه الوحدات ، وهو الذي يحدد ماهية العلاقات داخل الأسرة ووحداتها ، ويؤدي الخال إلى أربعة ألفاظ حسب "ستروس" هي: (الأب : زوج الأخت ، الأخت ، ابن الأخت : الأولاد ، الأخ : الخال نفسه).

ولكن كيف وجد الخال في هذه البنية ؟

يقول "ستروس" لا نحتاج إلى أن نشير إلى كيفية ظهور الخال في هذه البنية فهو (الخال) شرطها ولا يمكن أن توجد البنية من دونه ، فهو لا يظهر فيها ، بل أعطي لها مباشرة ، ويمكننا أن نطلق على هذه البنية اسم "البنية الخالية" وهذه البنية هي التي كونت الأسرة ومن تم القرابة.

ويرى "ستروس" أن البنية الخالية هي بنية عامة موجودة في كل المجتمعات البشرية وما يواجهنا السؤال التالي : كيف اعتبرت هذه البنية بأنها بنية كلية /عامة ولا يخلو مجتمع إنساني منها ؟

يجيب "ستروس" عن ذلك بأن أي مجتمع يقوم أساسا على قاعدة تحريم "سفاح المحارم" وهي قاعدة عامة في المجتمع البشري . وهذه القاعدة تحرم على الرجل من الزواج بأخته ، إذ ينبغي عليه أن يتزوج من امرأة خارج دائرة المحارم كما يتم التنازل له عن امرأة أخرى ليتزوج بها من رجل آخر وهكذا ...

ويرى "ستروس" أن قانون التحريم هذا هو قانون (بنيوي) يعادل البنية الخالية ، كما أنه قانون عقلي ، حاضر في اللاوعي أو اللاشعور ، إلا أن الامتيازات الاجتماعية قد حجبته عن الظهور ، وهذا القانون هو الأساس الحقيقي للنظام القرابي ووجود الأسرة.

قاعدة سفاح المحارم = البنية الخالية .

البنية الخالية = الزوج الخارجي

إذن قاعدة سفاح المحارم = الزواج الخارجي .

فالمجتمع قرايبا قائم على قانون التحريم الذي هو قانون بنيوي³⁹ .

خاتمة :

وأخيرا فإن من أعظم التحديات المثيرة للاهتمام التي تواجه دراسات الأسرة والقراية ، تلك التحديات التي تواجه الباحثين أنفسهم بوصفهم متخصصين في هذا المجال ، حيث لا ينظر إلى نتائج دراساتهم بعين الاعتبار أو الثقة من قبل صانعي القرار . لذا لا بد من تدعيم وتوسيع جهود التنسيق بين الهيئات والمؤسسات الأكاديمية من جانب والأجهزة الحكومية ومشروعات التنمية من جهة أخرى .

قائمة المراجع :

I – الكتب :

- 1- حسين عبد الحميد أحمد رشوان : الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، د.ط . 2003.
- 2- عاطف وصفي : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ط ، د.س.
- 3- عباس أحمد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار القلم للطباعة والنشر ، دبي ، ط2 ، 1983.
- 4- عبد الله عبد الرحمن يتيم : كلود ليفي ستروس ، قراءة في الفكر الأنثروبولوجي المعاصر ، بيت القرآن ، البحرين ، ط1 ، 1998.
- 5- عبد المجيد لبصير : موسوعة علم الاجتماع مفاهيم في السياسة والاقتصاد والثقافة العامة ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2010.
- 6- علي محمد المكاوي : الأنثروبولوجيا وقضايا الإنسان المعاصر ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة ، ط1 ، 2007.
- 7- فائق شريف : الأسرة والقراية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، مصر ، ط1 ، 2006.
- 8- مجدي الجزيري : البنية والتنوع البشري وكلود ليفي ستروس ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط3 ، 2002.
- 9- محمد الجوهري : الأنثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات علمية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ط3 ، 1982.
- 10- محمد الجوهري وآخرون : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د.ط ، 2006.
- 11- نبيل عبد الهادي : علم الاجتماع التربوي ، دار اليازوري العلمية ، الأردن ، د.ط ، 2007.
- 12- يحي مرسى عيد بدر : أصول علم الإنسان ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، ط1 ، 2007.

II- المواقع الإلكترونية :

³⁹ Bahaowzc:ixzz #393.com/showthread.php?t :

3http://www.alwafa-ibda, 25/10/2011, 20 :15.

البناء الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي

أولاً: البناء الاجتماعي :

مقدمة : يعتبر مفهوم البناء الاجتماعي في المفاهيم الأساسية في الدراسات الاجتماعية بصفة عامة والدراسات الأنثروبولوجية بصفة خاصة ، وهذا المفهوم يقوم على مبدئين أساسيين ومتكاملين هما :
أ- الاستمرار في الزمن سواء بالنسبة للجماعات أو العلاقات الاجتماعية التي تؤلف هذا البناء.
ب- أن العلاقات الثابتة المستمرة بين الجماعات المتماسكة تتخذ شكل انساق ونظم متساندة وظيفيا
مفهوم البناء الاجتماعي : ظهر مفهوم البناء الاجتماعي عندما ألقى رادكليف براون محاضراته الشهيرة بعنوان البناء الاجتماعي لسنة 1940 . فالبناء الاجتماعي كما يعرفه إيفانز بريتشارد هو نسق اجتماعي يتميز بدرجة معينة من الثبات والاستقرار ... ويتألف من جماعات وزمر ، ووافق بوارون على تعريف بريتشارد ولكنه أضاف إليه بعض العناصر كالعلاقات التي تجمع بين شخصين أو أكثر مثال نظام الخرابة ، وكذلك عمليات التمييز بين الأفراد على أساس الدور الاجتماعي كأدوار النساء وأدوار الرجال...إلخ. وقد ركز براون على العلاقات الاجتماعية العامة التي تتكرر فيهما الأنماط الاجتماعية باستمرار والتي يتكون فيها البناء الاجتماعي ، ويؤكد براون أن الحالات الفردية التي

تتجسد فيها تلك العلاقات الاجتماعية ليست هي موضوع الدراسة العملية للبناء الاجتماعي إنما هو السلوك المتكرر لعدد من الأفراد. والذي يمثل نمطا اجتماعيا معيناً ، وبالتالي يتكون البناء الاجتماعي من هذه الأنماط مجتمعة⁴⁰. ويعرف البناء الاجتماعي في قواميس الأنثروبولوجيا بأنه البناء الاجتماعي نسيج متكون من العلاقات التي تربط بين أعضاء مجتمع ما ، وفي رأي آخر يتكون ذلك النسيج من العلاقات التي تربط بين الجماعات الأساسية في مجتمع ما⁴¹ ، وعرفه كيسيغ في كتابه الأنثروبولوجيا الثقافية بأنه النظم الاجتماعية التي عن طريقها تصل مجموعة من السكان إلى حالة التكامل والترابط وهي الحالة اللازمة لتكوين المجتمع . ويعرفه إيفانز بريتشارد بأنه الجماعات الاجتماعية المستمرة في الوجود لوقت كاف تستطيع الاحتفاظ بكيانها كجماعات على الرغم من التغيرات التي تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات . ومما سبق يتضح أن كيسيغ يحدد مجال البناء الاجتماعي بالنظم الاجتماعية في مجتمع ما ، بينما يهتم إيفانز بريتشارد بالجانب المورفولوجي للمجتمع فيحدد البناء الاجتماعي بالجماعات التي يتكون منها المجتمع وبالعلاقات الاجتماعية بين تلك الجماعات بينما يلخص راد كليف براون رأيه في البناء الاجتماعي في أنه يشتمل على ثلاث مجموعات من الظواهر الاجتماعية هي :

- 1- الجماعات الاجتماعية المستمرة في الوجود لفترة كافية من الزمن وتعرف هذه بالأشكال المورفولوجية للمجتمع الإنساني وهي أشكال تكتل الإنسان في وحدات اجتماعية مختلفة في الحجم والوظيفة .
- 2- يعد نظام القرابة أهم النظم الاجتماعية في المجتمعات البدائية ، وهو في أي مجتمع يتكون من عدد من العلاقات الثنائية مثل بين الأب والإبن أو بين شقيق الأم وابن أخته.
- 3- ظواهر التنوع بين أفراد وجماعات مجتمع ما ، ويحدد تلك الظواهر الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد والجماعات في المجتمع الواحد ، وتنتمي كل مجموعة من الأدوار الاجتماعية إلى مراكز اجتماعية يحددها المجتمع ويشغلها الأفراد والجماعات حسب شروط معينة ، فمثلا تتفق المجتمعات الإنسانية على تمييز المراكز الاجتماعية التي يشغلها الرجال عن تلك التي يشغلها النساء.

خصائص البناء الاجتماعي : إن البناء الاجتماعي يقسم لمجموعة من الخصائص أهمها :

⁴⁰ لطفي عبد الحميد - الأنثروبولوجيا الاجتماعية - دار المعارف ، مصر 1979 ، ص 87.
⁴¹ محمد الخطيب- الأنثروبولوجيا الاجتماعية - دار علاء الدين للنشر والتوزيع - دمشق - سوريا ، الطبعة الثانية 2008 ، ص 69.

1- البناء الاجتماعي يتكون من أنماط العلاقات الاجتماعية ، فعندما تدرس البناء الاجتماعي في مجتمع معين ، تقوم بملاحظة العلاقات الاجتماعية في صورتها الواقعية المحددة بمكان وزمان معينان . وتحدث تلك الحالات الفردية للعلاقات الاجتماعية بين فردين على الأقل أي قد تجمع عددا كبيرا من الأفراد . ولا توجد العلاقات الاجتماعية إلا عندما يوجد بعض التوافق بين مصالح الأفراد أو يوجد تعارض في تلك المصالح أو عندما توجد محاولات للحد من الصراع الذي ينشأ من تعارض المصالح. والمقصود بالمصلحة المفهوم الواسع للمصطلح ، وقد حدد رادكليف براون المفهوم الشامل بأنه كل سلوك هادف ، وعلى الأنثروبولوجي الاجتماعي أن يلاحظ عددا كبيرا من العلاقات الاجتماعية الواقعية في مجتمع ما.

إن الهدف الأساسي للأنثروبولوجي الاجتماعي من ملاحظاته المباشرة للعلاقات الاجتماعية الواقعية هو الوصول إلى أنماط تلك العلاقات ، ومن تلك الأنماط يتكون البناء الاجتماعي .

والخلاصة أنه بينما تتكون المادة الأولية للبناء الاجتماعي من العلاقات الاجتماعية الواقعية المجسدة ، فإن البناء الاجتماعي ذاته يتكون من أنماط تتبلور حولها العلاقات الاجتماعية الواقعية ووظيفة الأنثروبولوجي هو الكشف عن هذه الأنماط⁴².

- 2- البناء الاجتماعي كل أو نسيج متشابه الأجزاء ، فالبناء الاجتماعي يتكون من أنماط العلاقات الاجتماعية ، والتي صنف في ثلاثة أقسام لتسهيل عملية الدراسة وهي :
- التجمعات أو الجماعات التي يتكون فيها المجتمع موضوع البحث.
 - النظم الاجتماعية التي تمثل الجهاز الذي عن طريقه يستمر البناء الاجتماعي ويبقى على مر الزمن.
 - المراكز الاجتماعية التي يحتلها الأفراد والجماعات والأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد والجماعات من خلال المراكز الاجتماعية.

إن الأنثروبولوجي الاجتماعي يقوم بدراسة هذه الأقسام وما ينطوي تحتها من أقسام فرعية مستخدما في ذلك المنهج الكلي ، أي أن تشمل دراسته كل أجزاء البناء الاجتماعي التي تميزها عن غيرها من العلوم الاجتماعية . فوصف أنماط العلاقات الاجتماعية وتحديد أجزاء البناء الاجتماعي في مجتمع ما يعد سهلا ، إذا قورن بعملية تحليل وتكامل تلك الأجزاء

⁴² عاطف وصفي - الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار النهضة العربية - بيروت 1981 ، ص 84-86 .

بصورة موضوعية دقيقة ، وبعد التمييز بين الوصف والتحلي إحدى المميزات التي تميز دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن دراسات الإثنوغرافيا التي تقتصر في الغالب على وصف عناصر البناء الاجتماعي.

إن التركيز على ضرورة دراسة التأثير المتبادل بين أجزاء البناء الاجتماعي تميز الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن العلوم الاجتماعية التخصصية كعلم الاقتصاد واللغويات والعلوم السياسية وعلم الاجتماع... إلخ ، فهذه العلوم تقوم على مبدأ التخصص والتركيز على دراسة نظام اجتماعي معين مستخدمة في ذلك المناهج الإحصائية الحديثة لتحديد العلاقات العلمية بين عناصره دون الاهتمام بالنظم الاجتماعية الأخرى أو بالبناء الاجتماعي ككل وحثهم في ذلك أن التخصص يؤدي إلى الكشف عن أعماق الظاهرة الاجتماعية . وقد يكون هذا التبرير صحيحا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة كبيرة الحجم والمعقدة في نظمها الاجتماعية ، ولكنه غير صحيح في حالة المجتمعات البدائية والريفية التي تتميز لصغر الحجم وتماسك البناء الاجتماعي في وحدة تكاملية لا يمكن دراسة أي جزء منه بمعزل عن الأجزاء الأخرى. ولا يفهم من ذلك أن الوحدة التكاملية لأجزاء البناء الاجتماعي ، ولا توجد إلا في المجتمعات البدائية والريفية لأن البناء الاجتماعي كل أو نسيج متشابك الأجزاء بالنسبة لكل المجتمعات ، وإنما يحتم تعقيد النظم الاجتماعية في المجتمعات المتقدمة إلى التخصص الدقيق عند دارس تلك النظم بينما لا يوجد مثل ذلك التعقيد في المجتمعات البدائية ، وقد يكون التأثير المتبادل بين عناصر البناء الاجتماعي ليس واضحا ومن أمثلة ذلك التأثير المتبادل بين نظام اللغة وباقي عناصر البناء الاجتماعي .

3- البناء الاجتماعي مستقر ومستمر ولكنه ليس جامدا حتى يتمكن بناء اجتماعي معين من القيام بوظيفته الاجتماعية الأساسية ، ألا وهي الحفاظ على تماسك المجتمع وكيانه كمجتمع متميز يجب تواجد المجتمع لفترة طويلة من الزمن تكفي لظهور البناء الاجتماعي أولا ثم لاستمراره ثانيا ، ولذلك يتميز المجتمع عادة بالاستمرار لفترات طويلة من الزمن بعكس ما يحدث للأفراد الذين يكونونه، ويترتب على أن يتميز البناء الاجتماعي عادة بخاصية الاستقرار والاستمرار لمئات السنين ، لكن قد يحدث أن تتعطل أجهزة البناء الاجتماعي بحيث لا تستطيع نظمه الاجتماعية من تأدية وظائفها في أوقات الحروب والثورات ، ولكن سرعان ما يعود الاستقرار وبالتالي يستمر البناء الاجتماعي ويبقى . ولا

يقصد باستمرار واستقرار البناء الاجتماعي لفترة طويلة القول بأنه جامد (إستاتيكي) مثل مبنى المنزل أو مبنى المدرسة ، وإنما المقصود بذلك استمرار متغير (ديناميكي) مثل استمرار البناء العضوي للجسم الحي ، فمن الملاحظ أن خلايا الجسم الحي تتجدد باستمرار ، وبالنسبة للبناء الاجتماعي ، يحدث تجديد مشابه في أعضائه ، فكل يوم يدخل فيها أعضاء جدد عن طريق الولادة وأحيانا عن طريق الهجرة أيضا، وفي كل يوم كذلك يخرج من نطاقه بعض أعضائه عن طريق الوفاة أو عن طريق الهجرة أيضا. كما توجد مظاهر أخرى للتغيير في البناء الاجتماعي أهمها التغيير في العلاقات الاجتماعية من يوم لآخر نظرا لتغير الأفراد وتغير الزمان والمكان وتختلف سرعة هذا التغيير ، وقد لوحظ أن تغير البناء الاجتماعي يكون بطيئا جدا في المجتمعات البدائية ، مما أدى بالبعض أن يطلق عليها اصطلاح المجتمعات الجامدة ، وعلى النقيض تتميز المجتمعات الصناعية المتقدمة بسرعة التغير . أما المجتمعات النامية فتتغير بمعدل متوسط ، وقد يحدث أن يتعرض البناء الاجتماعي لمؤثرات مفاجئة أو قوية ، قد تكون من داخل المجتمع أو من خارجه يترتب عليها حدوث تغيرات سريعة في بعض أجزاء البناء الاجتماعي. كما قد يتعرض البناء الاجتماعي إلى ضغوط خارجية تعمل على القضاء عليه وانقراضه ، ويتحقق ذلك عن طريق القضاء على المجتمع بقتل أعضائه أو تشتيتهم وذلك لأنه لا يمكن أن يوجد بناء اجتماعي بدون مجتمع يعمل من خلاله ، ولا يمكن أن يوجد المجتمع بدون عدد من الأفراد يكونونه، ويقدم لنا التاريخ بعض الأمثلة ، فقد انقرضت أعدادا كبيرة من المجتمعات البدائية وبخاصة في الأمريكيتين وأستراليا ، وقد قضي على بعضها بصورة مقصودة عن طريق الحروب⁴³.

إن دراسة البناء الاجتماعي وما يحويه من انساق ونظم تساعد على إمكانية الدراسة المقارنة للمجتمعات المختلفة وبالتالي فهم المجتمع الإنساني بأسره ، وتحتاج هذه الدراسة إلى تصنيف النظم والأنساق التي تدخل في تكوين البناء الاجتماعي وهذه المسألة شاقة ومعقدة وتحتاج إلى وقت طويل وإلى تضافر أعداد كبيرة من الباحثين وإلى الاتفاق حول معايير محددة للتصنيف وإلى تقريب وجهات النظر حول دلالات المفاهيم والمصطلحات العلمية المستخدمة⁴⁴.

⁴³ المرجع السابق ، ص (88-90).

⁴⁴ محمد عباس وآخرون ، الأنثروبولوجيا ، علم الإنسان – دار المعرفة الجامعية – مصر 2009 ، ص 107.

الإنسان محور البناء المجتمعي: انتهت عموم الدراسات التي تناولت موضوع البناء المجتمعي، إلى إيلاء الدور الأول لهذا البناء للإنسان الذي هو محور المجتمع ومادته الأساسية غير أن الاختلاف في نسبة تدخل الإنسان - كقوة - في تشكيل صيغ البناء الاجتماعي وتزداد هذه النسبة كلما اقتربنا من المنهج الديني لدراسة المجتمع، وهذا المنهج الأخير ينقسم ويتفرع هو الآخر بحسب طبيعة الدين والتدين، وما دام البحث يدور حول التصوير الإسلامي لهذه المناهج، فإننا لا بد من أن نختزل الآراء الدينية والعقائدية التي تطرقت في تشخيص دور هذا الإنسان، فمنها ما غالى بهذا الدور فأوصل الإنسان إلى مرتبة المعبودية أو قصر فبخس حق الإنسان فاسترق الرجل وحقر المرأة، وقد أخذت النظرة الإسلامية للمجتمع شكلاً واضحاً حيث هو (ذلك المجتمع الذي تميز عن المجتمعات الأخرى بنظمه الخاصة وقوانينه القرآنية وأفراده الذين يشتركون في عقيدة واحدة ويتوجهون إلى قبلة واحدة ولهذا المجتمع وإن تكون من أقوام متعددة وألسنة متباينة خصائص مشتركة وأعراف عامة وعادات موحدة. وبالتحديد الأنف الذكر تكون النظرة الإسلامية لمجتمع المسلمين هي للخصائص العقائدية بالدرجة الأولى والتي تتأسس في كنفها العادات والتقاليد والأعراف، فالمجتمع البدوي والمجتمع الحضري يقتربان من كونهما داخل إطار الدين الإسلامي الذي هو القانون المدني والقانون الديني في نفس الوقت مما يعطيه صفة الإلزام التي تفتقدها الكثير من القوانين الوضعية أو قوانين الأديان الأخرى.

عناصر البناء الاجتماعي: أن لكل جماعة نسقا اجتماعيا يكاد لا يقتصر على مجتمع دون غيره وهناك عناصر تشترك فيها هذه الجماعات ومنها، الشعور بالانتماء للجماعة، والتعبيرات القيمية والمثل التي تشترك فيها الجماعة، والتفاوت الفردي لعناصر المجتمع ، والأدوار، والسلطة، إضافة للمعتقد العام أو لأغلب أفراد الجماعة. والانتماء إلى الجماعة إما أن يكون طوعيا بان يختار الفرد مجتمعه دون ضغوط خارجية أو أن يجبر الفرد على الانتماء لمجتمع معين بعد أن يستنفذ سبل بقاءه وانتمائه لمجتمعه الأصلي ومثال ذلك الهجرات التي تكون نتيجة الاحتلال أو الحروب وما شابه، وهنا ينشأ تقسيم الجماعات إلى (ذات الأصل المشترك common origin أو الجماعات ذات المصلحة المشتركة common interest الا أن بعض المتخصصين لا يرون هذا التمييز كافياً لأن كل الجماعات في واقع الأمر لها مصلحة مشتركة لذلك يطلق على الجماعة الأولى اسم (الجماعة الشكلية الرسمية) والثانية اسم (الجماعة الغرضية).

التنظيم الاجتماعي

نظام الزواج

تمهيد: الزواج ظاهرة اجتماعية تلازم أي مجتمع بشري، ولا خلاف على وجوده في كل المجتمعات القديمة والحديثة، الغنية والفقيرة، المتخلفة والمتقدمة. إلا أن الخلاف الأساسي يكمن في كثير من الأمور المرتبطة بالزواج مثل طريقته، وعدد الزوجات والمراسم والطقوس المتبع في إجراءاته... الخ. والواقع أن الزواج يمثل المقدمة الأساسية للأسرة، فكلاهما مكمل للآخر ولا تقوم له قائمة بدونه. ومع ذلك الترابط الوثيق ينبغي أن نميز بين كلا النظامين. فالأسرة جماعة اجتماعية تتميز بسكن مشترك، وتعاون اقتصادي بين أعضائها، وتكاثر بين الزوجين أما الزواج فهو مجموعة من العادات تحدد صور العلاقات بين شخصين بالغين يباح الاتصال الجنسي بينهما، ويدخلان في الأسرة، ولا تكون بدونهما. وفي المجتمعات البسيطة يتخذ الزواج شكلا معيناً يتمثل في عقد بين جماعة قرابة وأخرى كأن تكون أسرة أو قبيلة كما في المجتمع البدوي العربي. وفي ضوء ذلك يمكن الإشارة فيما يلي إلى أهم معايير تصنيف نظم الزواج في المجتمعات البسيطة، من خلال دراسات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

أولاً: عدد المشتركين في علاقة الزواج

ثانياً: نظم السكن بعد الزواج

ثالثاً: نظم اختيار شريك الحياة الزوجية

رابعاً: من يختار شريكة الزواج

خامساً: طرق الزواج

سادساً: مدى قوة علاقة الزواج

أولاً: عدد المشتركين في علاقة الزواج: أكدت دراسات علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على وجود اختلافات بين المجتمعات البسيطة التي درسوها فيما يتعلق بالزواج، وعدد المشتركين فيه. وعلى هذا الأساس أجروا تصنيفاً للنظم المختلفة المتبع فيه. كما يلي:

1. نظام الزواج الأحادي: وخلصته أن يتزوج رجل واحد بامرأة واحدة. ومعنى ذلك وجود نظام

وحدانية الزوج ووحداية الزوجة، وأن علاقة الزواج هي علاقة تجمع بينهما فقط.

2. نظام الزواج التعددي: وهو نظام يتضمن علاقة زواجية بين رجل واحد وأكثر من زوجة، ويتضمن

كذلك علاقة زوجية بين امرأة واحدة وأكثر من زوج. والواقع أن نظام تعدد الزوجات هو النظام الأوسع انتشارا في المجتمعات البشرية. على حين يتضاءل وجود نظام تعدد الأزواج أو يندر وجوده. **ثانيا: نظم السكن بعد الزواج:** لا يقتصر الاختلاف بين المجتمعات البشرية على عدد المشتركين في علاقة الزواج فحسب، بل يمتد ليشمل نظم السكن (مكان الإقامة) بعد الزواج. وأهم هذه النظم هي:

1. نظام السكن مع أسرة الزوج: في هذا النظام تنتقل الأسرة للإقامة مع أسرة الزوج بعد إجراء طقوس ومراسم الزواج.

2. نظام السكن مع أسرة الزوجة: وفي ضوء هذا النظام ينتقل الزوج للإقامة مع أسرة زوجته بعد إتمام إجراءات الزواج. ولكن لا يتمتع هذا النظام بالانتشار الذي يتميز به النظام السابق.

3. نظام حرية اختيار السكنى مع أسرة الزوج أو مع أسرة الزوجة: ومعنى ذلك أنه لا إلزام على الزوج أو على الزوجة بالإقامة عند أسرة أي منهما، وإنما يترك أمر تحديد مكان الإقامة لظروفهما الخاصة ولقرارهما.

4. نظام السكنى مع أسرة خال الزوج: وهو نظام نادر الوجود في المجتمعات. وقد حدد ميردوك نسبة انتشار هذا النظام بين عينة المجتمعات المائتين والخمسين التي درسها بحوالي 1,7%، ويرى أن أبناء الأخت يتركون بيوتهم ويلجأون إلى بيت خالهم ويتزوجون إحدى بناته، وبالتالي يقيمون مع أسرة الخال.

5. نظام عدم التقدي بمكان معين: للسكنى بعد الزواج. والواقع أن هذا النظام يقترب إلى حد كبير من نظام حرية اختيار السكنى. ولكن الفارق هو أن حرية الاختيار ضيقة وتقتصر على بديل واحد. إما الإقامة مع أسرة الزوج، وإما الإقامة مع أسرة الزوجة. على حين أن النظام الحالي عدم التقيد بمكان معين، يحوي حرية كاملة للزوجين في اختيار مكان الإقامة ودون التقيد بأسرتيهما الأصليتين.

ثالثا: نظم اختيار شريك الزواج : وضع المجتمع عددا من النظم الاجتماعية التي تقدم حلا لا جاهزة لأعضائه، وتحدد لهم ما ينبغي فعله وما ينبغي هجره. والملاحظ أن هذه النظم تسعى لتدعيم بقاء المجتمع واستمراره في الوجود، كما تحافظ على تحقيق التكامل والضبط الاجتماعيين. ومن أهم النظم التي وضعها المجتمع لاختيار الزواج ما يلي :

1. نظام المحارم: وهو النظام الذي يحضر عملية الزواج من أشخاص أو فئات أو مجتمعات معينة بسبب بعض الاعتبارات الدينية أو القرابية.... الخ. والجدير بالذكر أن هناك اختلافا واضحا بين المجتمعات البشرية حول نطاق المحارم الذي تفرضه. ولعل أضيق نطاق هذه المحارم هو تحريم الزواج بين الشخص وأصوله والديه وفروعه أطفاله وإخوته. وهو نظام عالمي تطبقه كل المجتمعات

البشرية، البسيطة منها والمعقدة على حد سواء. والواقع أن الأديان السماوية جميعها هي التي وضعت هذا النظام ودعمته.

2. اختلاف الطبقة أو الدين أو المركز الاجتماعي: تحدد القواعد والمعايير الاجتماعية في كل المجتمعات البشرية ضرورة زواج الشخص من داخل فئة معينة. ولكن موضع الاختلاف بين هذه المجتمعات يكمن في تحديد الفئة المعنية والوزن النسبي الذي تحتله كل فئة من فئات المجتمع. وقد تكون هذه الفئة هي العائلة الممتدة (الكبيرة) مثل زواج أبناء العمومة وأبناء الخولة. كما قد تكون القبيلة التي ينتمي إليها الشخص هي الفئة المطلوبة، ولذلك يسودها الزواج من داخل القبيلة أو في حدود القبيلة.

رابعا: من يختار شريكة الزواج: مثلما اختلفت المجتمعات البشرية حول نظم السكن بعد الزواج، واختيار شريك الزواج وعدد المشتركين في علاقة الزواج، فإنها تختلف أيضا في تحديد الشخص أو الأشخاص الذين يختارون الزوجة المستقبلية لفرد ما في الجماعة. ولذلك تواجهنا مجموعة من النظم، التي تحدد أطراف الاختيار، توصل إليها علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية من واقع دراستهم الميدانية للمجتمعات البسيطة والبدائية في مناطق عديدة من العالم. وتتمثل أهم النظم فيما يلي:

1. الولدان والأقارب: يتولى الولدان والأقارب عموما عملية اختيار شريكة حياة الابن، ولا تتاح الفرصة له ليقوم هو بالاختيار. ويسود هذا النظام في المجتمعات البسيطة على السواء حيث يشترك الأبوان مع الأقارب من الأعمام والأخوال أو العمات والخالات أو الأجداد والجندات... الخ، في اختيار زوجة للابن. ومرد ذلك إلى أن هذا الابن يعيش مع الأسرة الممتدة الكبيرة، فعليه أن يعمل وعليها أن تتكفل بالإنفاق عليه وعلى زواجه وعلى زوجته وأبنائه من بعد. أما في المجتمعات الريفية، يقوم الولدان أو احدهما باختيار زوجة لابنها الذي يعمل بالزراعة ولم يتعلم، على حين لا تسود هذا النظام في المجتمعات الحضرية الصناعية الحديثة، لأن الابن تعلم ويعمل ويستقل اقتصاديا ومعيشيا إلى حد كبير، وبالتالي يكون الاختيار راجعا إليه هو.

2. العلاقة القرابية المحددة: يحتم المجتمع على الشاب في بعض الأحيان الزواج من ابنة الخال (زواج أبناء الخولة)، بينما يحتم في مجتمعات أخرى _ زواج أبناء العمومة، حيث يتزوج الشاب ابنة عمه. والملاحظ على المجتمعات الريفية _ في مصر على سبيل المثال _ أن زواج الأقارب (العمومة والخولة) كان منتشرا إلى حد كبير قديما، ثم انخفض معدله في الوقت الراهن .

3. الخاطب أو الخاطبة: وهو نظام يسود في كثير من المجتمعات الريفية حيث تقوم امرأة _ معروفة للمجتمع المحلي _ بتعريف الفتى طالب الزواج بعدد من الفتيات ليختار منهن عروسا له. وفي بعض الأحيان يقوم رجل بهذه الوساطة للتوفيق بين شاب وفتاة بالزواج. وغالبا ما يكون هذا الرجل زعيما للجماعة أو رجل دين فيها، أو يمارس مهنة يطلع من خلالها على خبايا البيوت كالحلاق مثلا في المجتمعات الريفية.

4. الشخص الراغب في الزواج: ويسود هذا النظام في المجتمعات المتقدمة، حيث يتولى الشاب الراغب في الزواج، اختيار شريكة حياته بنفسه. وقد يتفق عها على الزواج بعد مناقشتها في كل التفاصيل، وبعد ذلك تخبر أسرتها، وتحدد موعدا له للزيارة والاتفاق مع الأم والأب للزواج. فإن قبلت الأسرة دعا الفتى أسرته للاتفاق مع أسرة العروس وإتمام الإجراءات والطقوس المتبعة. والواقع أن نظام المبادرة الشخصية للزواج يزداد انتشاره في المجتمعات الريفية والبدوية في الوقت الراهن، وذلك بسبب زيادة معدلات تعليم البنات واشتغالهن، وزيادة فرص الاحتكاك بينهن وبين زملائهم الشباب في مجال التعليم والعمل.

خامسا: طرق الزواج: هناك مجموعة من النظم التي تحدد الطريقة التي يتم بها الزواج، وهي طرق تختلف بالقطع من مجتمع بسيط إلى مجتمع مركب، ومن مجتمع متقدم إلى مجتمع متخلف. وقد جذبت هذه الطرق اهتمام الباحثين في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية في المجتمعات البدائية، وهناك بعض طرق الزواج منتشرة في معظم أنحاء العالم، والبعض الآخر يغلب على منطقة معينة، والبعض يندر وجوده أو يوجد في مجتمع بدائي واحد فقط... الخ. غير أن هذه التصنيفات ليست جميعها محل تسليم، وإنما لعب الخيال ببعض أصحابها فهموا في تفسيراتهم لطرق الزواج، وفي تعميم هذه الطرق، وذهبوا في التأكيد على واقعيته مذهب شتى. وعلى أية حال، فقد قدم هؤلاء الباحثون التصنيف التالي لطرق الزواج:

1. طريقة تقديم مهر للعروس وأهلها: وهي طريقة تعني تقديم المهر لأسرة العروس. وتنتشر هذه الطريقة عند معظم المجتمعات البسيطة في أفريقيا كما أوضحنا من قبل. إلا أن هذا لا يمنع وجود بعض التباين بين المجتمعات نفسها في صورة تقديم المهر وحجمه وأسلوب تقدمه... الخ. ويرى بعض علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية أن هذا النظام ينتشر في 70% من هذه المجتمعات. وقد فهم الأوروبيون والمبشرون في المجتمعات الأفريقية أن المهر نوع من الشراء، وأن الفتاة تباع مقابل رؤوس الماشية التي تكون منها المهر. غير أن معظم الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية على هذه

المجتمعات، كشفت النقاب عن أهمية المهر وألقت الضوء على الوظيفة الحيوية التي يضطلع بها في استمرار الحياة الاجتماعية واستمرارها. حيث أوضحت أن المهر لا يختلف عن (الدوطة) وهي مبلغ من المال تقدمه أسرة العروس للعريس في المجتمعات الأوروبية، وبالتالي لا يتضمن المهر شراء للزوجة، ولا انتقاص من قدرها. فالمهر يضمن جدية العلاقة الزوجية في الحياة الاجتماعية، ويؤكد استمرارها، واستقرار الأسرة نتيجة لذلك. والواقع أن حكومات المستعمرات حرمت هذا النظام، فتفككت روابط الزواج، وتصدعت العلاقات العائلية، وانحرفت النساء_ وهو الأمر الذي كان التحريم يقصد منع وقوعه_ وهنا تراجعت الحكومات في قرارها بعد أن أوضح الأنثروبولوجيون أهمية وظيفة المهر في حياة المجتمع.

2. طريقة العمل عند أهل العروس: وفي ضوء هذه الطريقة يقوم الشاب الراغب في الزواج بالعمل عند أسرة عروس المستقبل، لفترة من الزمن حسب الاتفاق بين الطرفين. وقد أوضح ميردوك أن هذا النظام يوجد في 12% من المجتمعات التي تدخل ضمن عينة دراسته (250 مجتمعا). ويمكن أن تكون هذه الطريقة هي الوسيلة الوحيدة_ في بعض المجتمعات_ للزواج، وفي بعضها الآخر يستخدم هذا النظام عندما لا يملك العريس قيمة المهر، فيعمل لدى أسرة العروس بما يساوي قيمة المهر.

3. طريقة خطف العروس: وهي طريقة نادرة الحدوث في المجتمعات البسيطة ولها سياق خاص وردود أفعال خاصة أيضا. وقد اعتبر أحد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية_ ماكلينان_ هذه الطريقة بمثابة الصورة الأولى للزواج في المجتمعات البدائية، والأصل الذي تطورت منه النظم الأخرى.

4. طريقة الميراث: وهي طريقة من طرق الزواج كانت تسود المجتمعات البسيطة، وتحتّم أن يرث الرجل زوجته أو زوجة أخيه المتوفى. ويسمى هذا النظام بالزواج الليفراتي. ويوجد في المجتمعات البسيطة_ كما قلنا_ كما يوجد في كثير من المجتمعات الريفية، حيث يتزوج الأخ أرملة أخيه حفاظا على الأبناء وتربيته مع العم. وضمانا لاستمرار الأرملة مع الأسرة، بزواجها من شقيق زوجها. وتمثل هذه الطريقة نوعا من التكافل الاجتماعي بين الأخوة. ويزداد معدل انتشارها في أثناء الحروب والكوارث.

5. طريقة الهرب: وهي تعني انسحاب الفتى والفتاة_ اللذين يرغبان في الزواج_ من المجتمع الذي ترفض تقاليده زواجهما، ويذهبان إلى مجتمع آخر، حيث يتزوجان بلا معارضة أحد أو صراع مع تقاليد يصعب تغييرها. ويندر هذا النظام في المجتمعات البسيطة ولكنه ينتشر_ بل يتزايد_ في المجتمعات المتعددة والحديثة. حيث تهرب البنات مع الشاب ويتزوجان رغما عن التقاليد بعيدا عن

الأهل وبدون موافقتهم. والواقع أنه نظام سلبي وسيء للقيم والعادات والتقاليد. والأجدى من الهرب. هو أن نواجه الواقع ونتحاور معه. بعقل يفكر ويد تعمل، وليس بمنطق المراهقة والرومانسية الحالمة. **سادسا: مدى قوة علاقة الزواج:** لا شك في أن مدى قوة علاقة الزواج تختلف من مجتمع إلى آخر. فالمجتمعات البدائية التي لا تعطي أهمية كبيرة للعلاقات العاطفية بين الشاب والفتاة قبل الزواج، لا تنظر للزواج على أنه علاقة أبدية بين الزوج والزوجة. وعلى هذا تبيح غالبية هذه المجتمعات البدائية الطلاق. ويرجع هذا الرأي للدراسة المقارنة التي أجراها هو بهوس على 271 قبيلة من القبائل البدائية، حيث وجد 4% فقط منها تمنع الطلاق.

ومن ناحية أخرى تؤكد نفس الدراسة المقارنة_ وغيرها من الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية_ على أن هذه المجتمعات البدائية والبسيطة، تختلف فيما بينها حول إعطاء حق الطلاق للزوج أو للزوجة. والواقع أننا نتصور_ للوهلة الأولى_ حق الطلاق يكون في بدأ الزواج. إلا أن واقع بعض هذه المجتمعات يشير إلى إعطاء هذا الحق للزوجة وليس للزوج. ويسود هذا النظام في المجتمعات التي تطبق (السكنى مع أهل الزوجة). أما عن أسباب الطلاق فهي الأخرى تختلف باختلاف المجتمعات البشرية. ففي المجتمعات البدائية يعتبر الزواج قضية لا تخص الزوج والزوجة بقدر ما تخص القبيلة أو العشيرة. وبالتالي تنوب شخصية كلا الزوجين في الجماعة، ويخضعان لما تفرضه عليهما من زواج أو طلاق...الخ. فقد يحتد الخلاف بين عائلتي الزوج والزوجة فيتم الطلاق. وكذلك عندما يعتدي أحد أفراد عائلة الزوجة على الزوج بالضرب، أو السب فلا بد أن يقع الطلاق. ومن ناحية أخرى تلعب ظاهرة التطير (التشاؤم) دورا هاما في حدوث الطلاق بين الزوجين عندما تقع حادثة ما، يعتبرها المجتمع نذير شؤم. أما في المجتمعات الحديثة، فإن الملاحظ أن أسباب الطلاق تختلف اختلافا واضحا عن المجتمعات البدائية والبسيطة. ففي هذه المجتمعات الحديثة يحدث الطلاق غالبا لعوامل اقتصادية أو عاطفية ويندر أن يقع نتيجة لحادث مصدر شؤم، أو لخلاف بين أسرتي الزوج والزوجة كما يسود في المجتمعات البدائية مثلا. إلا أن القاسم المشترك بين هذه المجتمعات المختلفة_ الحديثة والبسيطة_ هو إباحة الطلاق في حالات عقم الزوجة، حيث يعتبر الإنجاب قيمة جوهرية في حياة المجتمع. وكذلك يحدث الطلاق في حالات العجز الجنسي.

النظام الأسري : سبقت الإشارة إلى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس البناء

الاجتماعي، وبهذا سنحاول إلقاء الضوء على مجموعة النظم التي تشكل معا هذا البناء الاجتماعي،

وبالتالي نتناول النظام الأسري في هذا الفصل، من واقع الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية للمجتمعات البسيطة.

تعتبر الأسرة شكلاً مورفولوجياً أساسياً في تكوين المجتمع. والشكل المورفولوجي هو نمط من الوحدات الاجتماعية التي يتألف منها المجتمع. ولذلك نلاحظ سيادة هذا الشكل المورفولوجي على مستوى مجتمعات العالم ككل، سواء كانت بدائية بسيطة أو ريفية تقليدية أو حضرية صناعية. وينص تعريف الأسرة التقليدي عند ميردوك على أنها (جماعة اجتماعية تتميز بمكان إقامة مشترك، وتعاون اقتصادي، ووظيفة تكاثرية، ويوجد بين اثنين من أعضائها على الأقل علاقة جنسية يعترف بها المجتمع. وتتكون الأسرة على الأقل من ذكر بالغ وأنثى بالغة، وطفل سواء من نسلها أو عن طرق التبني والأسرة في مجتمعنا المصري هي عبارة عن (وحدة اجتماعية يقترن فيها رجل بامرأة في علاقة مشروعة يقرها العرف والدين، تسفر عن إنجاب أبناء، وتجمعهم جميعاً معيشة مشتركة في مكان محدد). والواقع أن هذا التعريف ينصب على الأسرة الصغيرة دون غيرها من الأسر الكبيرة.

وتنقسم الأسرة إلى عدة أنواع مختلفة. وقد حاول ميردوك إجراء مقارنات بين الأسر في 250 مجتمعا إنسانيا، وخلص مضها إلى سيادة ثلاثة أشكال أو أنواع من الأسر هي:

- 1. الأسرة النووية:** وهي وحدة اجتماعية صغيرة الحجم تضم الزوج والزوجة وأبنائها المباشرين فقط، وتعتمد هذه الأسرة وحدانية الزوج وحدانية الزوجة. وهذا ما يسمى الزواج الأحادي، أي زواج رجل واحد بامرأة واحدة. والملاحظ أن هذه التسمية للأسرة النووية _ راجعة أساساً إلى أنها تعتبر النواة أو الخلية الأولى والأساسية للمجتمع الإنساني. وفي بعض الأحيان تسمى بالأسرة الزوجية. ويحاول البعض تسميتها بالأسر الصغيرة، تمييزاً لها من الأنواع الأخرى من الأسر الكبيرة.
- 2. الأسرة التعددية:** للآزواج أو للزوجات) وهي ذلك النمط الذي يجمع بين عائلتين صغيرتين أو أكثر بشرط أن يكون الزوج أو الزوجة مشتركة في أكثر من أسرة صغيرة واحدة. والواقع أننا لا نتفق مع ميردوك في رأيه حول سيادة الأسرة التعددية للآزواج، ولا حتى في وجود حالات كثيرة تدل عليها.
- 3. الأسرة الممتدة:** وهي أسرة تتكون من جيلين فأكثر حيث يعتبر الجيل الثاني امتداداً للجيل الأول، وتعني الأسرة الممتدة كذلك وجود عائلتين صغيرتين على الأقل تعيشان معاً في مكان واحد في معيشة مشتركة، وتضم الآباء والأبناء والأحفاد، كما قد تضم الأعمام والأخوال أو بنات وأبناء العمومة والخنولة.

وسنحاول إلقاء الضوء على هذه الأنواع من الأسر، فنشير إلى خصائص كل منها، والوظائف التي تضطلع بها الأسرة عموماً في داخل البناء الاجتماعي للمجتمع، وذلك خلال بعض الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية التقليدية التي أجريت على الأسرة في المجتمعات البسيطة.

أولاً: خصائص الأسرة النووية: تنتمي الأسرة النووية بعدة خصائص متميزة في شتى أنواع المجتمعات الإنسانية البسيطة والمركبة باعتبارها النواة والأساس الركين لأي مجتمع. وفيما يلي هذه الخصائص التي تنتمي بها تلك الأسرة النووية :

1. تعتبر الأسرة النووية ظاهرة اجتماعية عالمية فهي لا يخلو منها مجتمع ولا تقوم له بدونه قائمة. وقد توجد هذه الأسرة في صورة متفردة بمعنى أنها تسود المجتمع كشكل صغير ومستقل ومتميز، وقد توجد في صورة مركبة بحيث تكون بمثابة الوحدة الرئيسية في أي مركب اجتماعي أكبر حجماً، ولكنها في هذه الحالة تنتمي إلى أنواع أخرى من الأسر الممتدة على سبيل المثال.
2. تنطوي الأسرة النووية على خاصية مزدوجة تتمثل في أن كل من الزوج والزوجة ينتمي إلى أسرتين في نفس الوقت. فالزوجة مثلاً تعتبر عضواً أساسياً في أسرتها النووية، وابنة في أسرتها الأصلية قبل الزواج وبعده. والزوج ابن في أسرته الأصلية، وزوج في أسرته النووية.
3. الأسرة النووية وحدة اجتماعية لا تستمر لفترات طويلة، إذ لابد أن تختفي في غضون قرن من الزمان في الغالب. وذلك بسبب وفاة أعضائها الأساسيين، وزوال هذه الأسرة وتكوين الأبناء لأسر نووية جديدة تنطبق عليها نفس الخاصية.
4. يعيش أعضاء الأسرة النووية في مكان واحد مستقل، ولا يمكن أن تتم مراسيم وطقوس الزواج في أي مجتمع بشري إلا بعد تدبير مكان إقامة الزوجين (عش الزوجية).
5. تعتمد الأسرة النووية على نظام الزواج الأحادي.

ثانياً: خصائص الأسرة التعددية: نقدم لكم فيما يلي عرضاً سريعاً لخصائص الأسرة متعددة الزوجات :

1. تتكون من عدة أسر نووية تعيش معاً في وحدة اجتماعية ومسكن مشترك وفي معيشة مشتركة. ويعتمد هذا النظام على وجود زوج مشترك بين أكثر من زوجة، وينتشر هذا النظام في معظم المجتمعات البشرية إلى جانب نظام الأسرة النووية. وقد لاحظ ميردوك أن 163 مجتمعاً إنسانياً من بين 238 مجتمعاً تجمع بين نظام الأسرة متعددة الزوجات والأسرة النووية.
2. تنتشر الأسرة متعددة الزوجات في معظم المجتمعات البشرية، ولكنها توجد إلى جانب الأسرة النووية في الغالب. ويتكون هذا النظام الأسري من زوج واحد وأكثر من زوجة واحدة_ بالإضافة إلى

الأطفال_ ويكون هذا الزواج معلنا أي يتفق عليه المجتمع ويقره العرف والدين السائد، كما يتضمن هذا النظام ضرورة الجمع بين أكثر من زوجة في وقت واحد.

3. تنجم عن طبيعة تكوين الأسرة متعددة الزوجات عدة مشكلات وخلافات بينهم. وتسمى لوسي ماير هذه المشكلات مركب أو عقدة الضرائر بسبب ما ينشأ من الزوجات من الغيرة وتوزيع الأعمال والاستئثار بالمكانة العالية في الأسرة، وبالخطوة لدى الزوج. بينما لا توجد هذه المشكلات في الأسرة النووية، لأن الزوجة واحدة لا تنافسها (ضرة). والواقع أن المجتمع يضع بعض الضوابط التي تساعد على حل مشكلات الأسرة متعددة الزوجات_ وإلى حد ما_ مثل اشتراط أن تعيش كل زوجة في مسكن خاص ومستقل عن شريكها في الزواج، وفي أحيان أخرى يضيف المجتمع على الزوجة الأولى مكانة عالية لتحترمها الزوجات الأخريات وفي أحيان ثلاثة ينظم العرف العلاقات الجنسية بشكل عادل بين الزوجات كأن يخصص الزوج لكل زوجة أسبوعاً أو يوماً... الخ.

ثالثاً: خصائص الأسرة الممتدة: تمثل هذه الأسرة النمط الثالث من أنماط الأسر في المجتمعات البشرية. وتتعدد المصطلحات الدالة عليها في بعض الأحيان، فتارة يطلق عليها الأسرة الممتدة، وتارة أخرى توصف بمصطلح الأسرة المشتركة، وأيضاً تسمى تارة بالأسرة المركبة. ولكن المصطلح (الأول) _ الأسرة الممتدة) هو الأكثر انتشاراً في الكتابات الأنثروبولوجية، وفي تراث الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

وسنحاول فيما يلي استعراض خصائص الأسرة الممتدة مثلما استعرضنا خصائص النووية والأسرة التعددية (متعددة الزوجات):

1. تضم الأسرة الممتدة أسرتين نوويتين أو أكثر تجمعهم رابطة القرابة الدموية العاصبة ويشتركون معا في مسكن واحد يضمهم جميعاً، ويعيشون في معيشة مشتركة، ويسود بينهم التعاون الاقتصادي . ومن أمثلة الأسرة الممتدة_ هذا الشكل_ الأب (الزوج) والأم (الزوجة)، وأبناؤهم الذكور وزوجاتهم وأبنائهم (الأحفاد) والبنات وأزواجهن وأبناؤهن في بعض الأحيان. وهكذا تضم الأسرة الممتدة الأجداد والأبناء والأحفاد، وربما أجيال أكثر من ذلك .
2. وقد تكون الأسرة الممتدة من عائلات متعددة الزوجات أو من الأسر النووية التابعة لها_ نسلها من البنين والبنات_ أو تكون منها معا. وتستمر الأسرة الممتدة أجيالاً وتضم أبناء وأحفاد يصبح عددهم جميعاً في بعض الأحيان مائة عضو.

3. تستمر الأسرة الممتدة في الوجود إلى ما لا نهاية وبشكل يختلف عن الأسرة النووية، والأسرة التعددية (متعددة الزوجات) وذلك بحكم استمرارها واحتوائها على أكثر من جيل، ومعيشة الأبناء الممتدة مثل الجماعة القرابية والمجتمع المحلي.

4. تلعب قاعدة السكنى_ أي مكان إقامة الشاب والفتاة بعد الزواج_ دورا بارز في بناء الأسرة الممتدة وتركيبها. ففي ضوء هذه القاعدة تفرعت الأسرة الممتدة إلى عدة أشكال. فهناك الأسرة الممتدة ذات السكنى مع والد الزوج وهي تضم الأسر التي يكونها أبناء الأب، حيث تضم الأب وزوجته وأبناءه وعائلاتهم وأحفاده وعائلاتهم .

5. يؤدي الاستمرار اللانهائي للأسرة الممتدة إلى زيادة حجمها من الأعضاء حيث لا يتوازن مع الموارد الاقتصادية المتاحة.

6. تؤلف الأسرة الممتدة وحدة اقتصادية متعاونة، ويكون مؤسسها رئيسا لها طوال حياته ينظم اقتصادها ويسوي أمورها، ويحقق العدل بين أفرادها. ولذلك يتمتع الأب المؤسس بسلطات واسعة على أبنائه وعلى عائلتهم، فهو السيد المطاع وهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيما يتعلق بحياة الأسرة من زواج وسكنى، وعمل وإنتاج وبيع وشراء وزراعة المحاصيل، والتعامل مع الأجهزة الرسمية ... الخ.

رابعا: وظائف الأسرة: إذا كنا نقول بأن الأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع، فإن معنى ذلك بقاء المجتمع واستمراره رهين ببقائها واستمرارها، وأن هذا الاستمرار والبقاء نتاج طبيعي لمجموعة من الوظائف التي تضطلع بها الأسرة وتؤديها، فلو لا هذه الوظائف لما استمرت الأسرة. وبالتالي لا تقوم للمجتمع العام قائمة بدونها. والواقع أن وظائف الأسرة التي سنذكرها هنا تصدق على الأسرة النووية في المقام الأول، كما تصدق أيضا على الأسر متعددة الزوجات والأسر الممتدة بشتى صورها. ومعنى هذا أن تلك الوظائف تمثل قاسما مشتركا إلى حد كبير بين مختلف أنواع الأسر. ولنبدأ بالإشارة إلى أهم هذه الوظائف التي تضطلع بأدائها الأسرة:

1. الوظيفة الجنسية: تحقق الأسرة وظيفة الإشباع العاطفي من خلال الزواج. ويحدث هذا الاتصال بين الزوج والزوجة بعد إتمام مراسم الزواج التي تعلن عن قيام هذه الأسرة. ويلعب الاتصال الجنسي دوره البارز في تدعيم العلاقات الاجتماعية بين الزوجين، مما يتيح للأسرة النووية أن تقوم بالوظائف الأخرى. وتجدر الإشارة إلى أن ثقافة المجتمع ونظمه الاجتماعية لا يطلقان العنان لهذا الاتصال الجنسي، وإنما يضعان له من الضوابط والقيود والوسائل ما يقصره على الحالات التي يبيحها المجتمع

ويرتضيها. والهدف من وضع هذه القواعد والقيود هو حفظ كيان الأسرة، والحفاظ على صحة الزوجين، وعلى الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء كحقوق النسب والميراث والتربية... الخ .

2. الوظيفة الاقتصادية: أكدت الدراسات الأنثروبولوجية البيولوجية على وجود عدد من الاختلافات الفسيولوجية بين جسم الرجل وجسم المرأة. ولكن هذه الاختلافات جعلت من الزوجين الذكر والأنثى وحدة متكاملة وعلى درجة عالية من الكفاءة. ولذلك تتأكد هذه الحقيقة من خلال دراسات علماء الأنثروبولوجية الاجتماعية على المجتمعات البسيطة وخاصة نظم تقسيم العمل الاجتماعي. فالرجل يتمتع بقوة بدنية تفوق قوة المرأة. ولذلك يستطيع انجاز الأعمال الشاقة مثل الصيد والقنص وتقطيع الأحجار والأشجار لبناء البيوت_ في المجتمعات البدائية _والقيام بالأعمال الزراعية والرعي وجني المحاصيل... الخ في المجتمعات الريفية. وعلى عكس ذلك نجد المرأة ذات طبيعة فسيولوجية تعوقها من أداء مثل هذه الأعمال الشاقة نتيجة الحمل والولادة والرضاعة والدورة الشهرية .

ولا شك في أن معايير تقسيم العمل بين الرجل والمرأة_ في هذه الحالة _ في ضوء النوع، قد ساعدت على كفاءة أداء العمل وإتقانه. وهكذا نجد أنشطة وأعمال الرجل خارج المنزل تكمل أعمال المرأة داخله بصورة تشكل وحدة اقتصادية متعاونة بينهما إلى حد كبير . وهنا تدعم الوظيفة الجنسية الوظيفة الاقتصادية بين الزوجين، على حين يؤدي التعاون الاقتصادي بين الآباء والأبناء ولإخوة والأخوات إلى تدعيم العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الأسرة.

3. وظيفة التكاثر: تعتبر الأسرة المصدر الوحيد لتزويد المجتمع بأعضاء جدد من خلال وظيفة التكاثر. وهكذا تؤدي الأسرة هذه الوظيفة الحيوية التي تحافظ على بقاء المجتمع واستمراره في الوجود. ولذلك لا نجد مجتمعاً إنسانياً يخلوا من المراسيم والطقوس التي ينظمها ليحتفل بولادة الطفل. وهناك العديد من العادات والتقاليد والممارسات الشعبية والمعتقدات التي تدور حول اسبوع المولود، وحول ختانه، وحول حمايته من الحسد والمرض. ولا يقف عند حد ما بعد الولادة، ولكنه يتعداه إلى ما قبلها أي في المرحلة الجنينية وما تتضمنه من صفات وممارسات اعتقادية فالحفاظ على الجنين. هذا بالإضافة إلى ما تحتويه الثقافة الشعبية من عناصر متعددة ومتنوعة حول القلق من تأخر الحمل وبالتالي الممارسات الشعبية التي تعجل بحدوثه، والمعتقدات التي تكمن خلف هذه الممارسات، ويؤكد ممارسوها على أهميتها في علاج العقم. وبهذا الشكل يتضح أن الوظيفة التناسلية ورعاية الطفل لا تقوم بها أية وحدة اجتماعية غير الأسرة. ومن المؤكد أن المجتمعات تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً في

تفاصيل الوظيفية التناسلية ووظيفة الرعاية الصحية للطفل مما يترتب عليه نتائج متباينة في سمات شخصية أعضاء المجتمع الواحد، وأعضاء الأسرة الواحدة. وقد حاولت المجتمعات المتقدمة _ في الوقت الراهن _ البحث عن بديل للأسرة للقيام بوظيفة الرعاية الصحية للطفل، فأنشأت دورا للحضانة للاضطلاع بهذه الوظيفة، ولا سيما للأطفال حديثي الولادة، إلا أنها أخفقت في تحقيق وظيفتها نتيجة العقبات العديدة التي واجهتها، فهذه المؤسسات الخاصة، التي يوضع فيها الأطفال بعد الولادة مباشر، تساعد على إصابتهم بأمراض كثيرة رغم الرعاية الصحية الفائقة الموجهة إليهم. وبالتالي فهناك آثار سيئة للغاية تقع على الأطفال الذين يفصلون عن أمهاتهم بعد الولادة. ومن أمثلة المشكلات والأمراض التي يعانون منها التخلف العقلي، والعجز عن النطق والكلام وفقدان الإحساس... الخ.

4. الوظيفة التربوية: يولد الطفل في المجتمع ولا يعرف عنه شيئا، وبالتالي عليه أن يكتسب كمية هائلة من الخبرات والمهارات، ويستوعب التراث الاجتماعي والثقافي السائد. والواقع أن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى والأساسية، التي تستطيع القيام بالوظيفة التربوية، بحيث يتواءم الطفل مع الضوابط والقواعد التي وضعها المجتمع وتضمنتها الثقافة السائدة. ويصبح آنذاك عضوا في المجتمع. وتسمى هذه العملية بالتنشئة الاجتماعية أو التنشئة الثقافية. والواقع أعباء هذه الوظيفة يقع فقط على عاتق الأسرة في المجتمعات البسيطة، وعلى حين نجد أن المجتمعات الحديثة والمتقدمة حاولت تقديم بعض المؤسسات الاجتماعية _ كالمدارس ودور الحضانة والجامعات _ لمشاركة الأسرة في هذه الوظيفة. ولكن هذا لا يعفي الأسرة من أداء هذه الوظيفة الحيوية، فالأب يقوم بدور التنشئة الاجتماعية والثقافية ولا يقل في أهميته عن دور الأم، هذا علاوة على دور الأخوة والأخوات في الأسرة، وجماعات الرفاق وأصدقاء اللعب وأقارب الطفل من المسنين في هذه العملية. وفي النهاية لابد من التأكيد على أن وظائف الأسرة قد تطورت من الاتساع إلى الضيق، ومن الطابع الكلي إلى الطابع الجزئي. ففي المجتمعات البسيطة والريفية، كانت الأسرة تضطلع لكل الوظائف التي ذكرناها من تنشئة اجتماعية وتربية وتدبير الحياة الاقتصادية وتقسيم العمل، وتوزيع القوى بداخلها، والقيام بشؤون الحكم وتزويد الأطفال بتراث المجتمع... الخ. إلا أن تطور المجتمع قلص من تلك الوظائف وسلبها من الأسرة، وحيث صارت النظم الحديثة من حضانات إلى مدارس وجامعات تقوم _ مع الأسرة _ بالوظيفية التربوية. ومن ثم تقلص دور الأسرة في هذه الوظيفة إلى حد كبير في الوقت الراهن. كذلك أدى تطور النظام السياسي والضبط الاجتماعي إلى تخصيص هيئات ومؤسسات مختلفة للاضطلاع بالوظائف السياسية والضبط... الخ، وبالإضافة إلى ذلك فإن تطور النظام الاقتصادي في المجتمع

سحب البساط من تحت أقدام الأسرة، وبالتالي فهي لم تعد تقوم بهذه الوظيفة بنفس الشكل القديم، وإنما صارت المؤسسات الاقتصادية (للعمل والإنتاج والتوزيع والاستهلاك) تتصدر أداء هذه الوظيفة بدلاً من الأسرة وهكذا.

قائمة المراجع :

- 01- عاطف وصفي – الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار النهضة العربية – بيروت 1981 .
- 02- لطفي عبد الحميد - الأنثروبولوجيا الاجتماعية – دار المعارف ، مصر 1979.
- 03- محمد الخطيب- الأنثروبولوجيا الاجتماعية – دار علاء الدين للنشر والتوزيع – دمشق – سوريا ، الطبعة الثانية 2008
- 04- محمد عباس وآخرون ، الأنثروبولوجيا ، علم الإنسان – دار المعرفة الجامعية – مصر 2009.

الأنثروبولوجيا الثقافية

مقدمة: تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية السلوك الإنساني ، وتتمثل الثقافة العادات والتقاليد والمعتقدات والممارسات ...إلخ وتعتبر الوسيلة التي يمكنه من الاتصال بجماعته المحلية أو الجماعات الأخرى المحيطة. لما لها من خصائص اجتماعية . ومن خلال هذا المحاضرة سنتناول مفهوم الأنثروبولوجيا الثقافية ومجالاتها وتطورها التاريخي .

مفهوم الأنثروبولوجيا الثقافية : تعرف الأنثروبولوجيا الثقافية على أنها ذلك الفرع الرئيسي من الأنثروبولوجيا الذي يهتم بدراسة مختلف ثقافات الإنسان ، فالإنسان حسب مالفوسكي هو كائن له شكله الفيزيقي وتراثه الاجتماعي وسماته الثقافية⁴⁵. كما تعرف بأنه العلم الذي يدرس الإنسان من حيث

⁴⁵ محمد عباس إبراهيم : الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 2009 ، ص 121.

هو عضو في مجتمع له ثقافة معينة⁴⁶ وعليه فإنه على الإنسان الذي يعيش في مجتمع ما يجب أن يمارس سلوكا يتماشى وسلوك أفراد المجتمع الذي هو جزء منه. ويعرفها بيلز و هويجر بأنها ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة الإنسانية وتعني بدراسة أساليب وسلوكاته النابعة من ثقافته ، وهي تدرس الشعوب القديمة وكما تدرس الشعوب المعاصرة⁴⁷. ومما سبق يتضح أن الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بدراسة السلوك الإنساني في مختلف الأزمنة ومن خلال هذه الدراسة ترمي إلى فهم الظاهرة الثقافية وتحديد عناصرها . كما تهدف إلى دراسة التمازج والتغير الثقافي باعتبار أن ثقافة الإنسان هي التي تمكنه من الاتصال بالآخرين سواء على مستوى جماعته المحلية أو الجماعات الأخرى المحيطة به بما لها من خصائص اجتماعية في بيئتها المتباينة .

مجالات الأنثروبولوجيا الثقافية: يدرس الأنثروبولوجيا الثقافية والثقافة بالاعتماد على مناهج علمية لا تختلف عن المناهج التي تستخدمها العلوم الطبيعية وتشمل الثقافة كل ما يصنعه الإنسان من عناصر المادة كالملبس و المسكن ، ومن أهم عناصر الثقافة العلاقات الاجتماعية التي تدخل في نطاق الثقافة والعلاقات الاجتماعية كما تجمع الثقافة كل أنماط وأشكال السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بعالم الأفكار.

إن اتساع المجال الذي تدرسه الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا وبريطانيا انقسمت إلى عدد من الفروع هي :

- 1- **الأنثروبولوجيا :** هي علم دراسة الشعوب ويعرفها كروبير بأنها علم الشعوب وثقافتهم وتواريخ حياتهم فتهتم برصد العلاقات المتبادلة بين الشعوب وبيئاتها ، والعلاقات المتبادلة بين الكائنات البشرية وثقافتها ، والعلاقات المتبادلة بين الثقافات المختلفة⁴⁸ ، لذلك تدرس الإثنولوجيا خصائص الشعوب اللغوية والثقافية والسلالية ، وقد اتفق معظم العلماء على إطلاق اصطلاح الإثنولوجيا على الدراسات التي تجمع بين الوصف والمقارنة . كما أطلقوا مصطلح إثنوغرافيا على الدراسة التي تقتصر على وصف ثقافة مجتمع ما ، فالإثنولوجي يهتم بالمقارنة بين الثقافات التي يصفها الإثنوغرافي ، ويهدف الإثنولوجي من وراء كل ذلك إلى الوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية ولظاهرة التغير الثقافي وأثار الاتصال بين الثقافات المختلفة

⁴⁶ عيسى الثمّاس - مدخل إلى علم الإنسان - "الأنثروبولوجيا" - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق 2004 ، ص 91

⁴⁷ بيلز رالف وهويجر هاري - مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة - ترجمة محمد الجوهري وآخرون - دار النهضة المصرية ، القاهرة 1977 ، ص 21.

⁴⁸ محمد عباس إبراهيم وآخرون - مرجع سابق ، ص 122.

49 كما يهدف الإثنولوجي أيضا إلى تصنيف الثقافات في مجموعات أو أشكال على أساس

مقاييس معينة . ومن خلال ما سبق يمكننا حصر مواضيع الإثنولوجيا في المجالات التالية :

أ- **ثقافة الشعوب الحالية** : وهي دراسة ثقافة الشعوب وقت إجراء الدراسة ، كما تدرس

الشعوب التي لديها تسجيلات مكتوبة قام بها إخباريين عاشوا تلك الثقافات

والإثنولوجي حينما يدرس ثقافة المجتمعات التي يبحثها يدرس الدين والتقاليد والفنون

الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية والنظم الاجتماعية والسياسية وكذلك المثل

العليا والأفكار⁵⁰.

ب- **الثقافة الفرعية** : يقصد بالثقافة الفرعية الجماعة من الناس الذين يشتركون في أنماط

تميزة من القيم والمعتقدات وتتميز طريقة حياتهم عن الثقافة الكلية التي تسود

المجتمع الأكبر في بعض الأنماط السلوكية الخاصة بهم ، وقد استخدم هذا المفهوم في

أغلب الدراسات التي أجريت على جماعات المراهقين تحت مفهوم الثقافة الفرعية

للمراهقين . الثقافة الفرعية هي نمط من المعية يختلف عن الثقافة الكلية وبعبارة أخرى

هي نمط من السلوك تتميز به الجماعة الخاصة التي تعيش داخل المجتمع الأكبر . وقد

يختلف سلوك أفراد تلك الجماعات عن سلوك أفراد المجتمع الكلي ولكن في نفس

الوقت تتضمن ثقافتهم الفرعية على عناصر تشترك فيها مع الثقافة الكلية ، كما تحتفظ

لنفسها بعناصر أخرى تميزها عن غيرها من الثقافات⁵¹ .

ت- **تصنيف الشعوب** : تهتم الإثنولوجيا بتصنيف الشعوب على أساس خصائصها السلالية

والثقافية وتفسير توزعها في الماضي والحاضر كتحرك هذه الشعوب أو هجرة الثقافة

أو اتصال تلك الشعوب بعضها ببعض . وتعد عملية تصنيف الثقافات خطوة هامة

وتمهيدية لعقد المقارنات بين الشعوب البدائية التي تهدف إلى التوصل إلى القوانين

العامة التي تحكم السلوك الإنساني⁵².

ث- **الخلفية التاريخية للثقافات** : تهتم الإثنولوجيا بالخلفية التاريخية للثقافات لأن كل ثقافة

هي عبارة عن متصل متغير عبر الزمن . وإذا كانت الإثنوغرافيا هي الدراسة

49 محمد الخطيب – الأنثروبولوجيا الاجتماعية – دار علاء الدين ، دمشق سوريا ط2 2008 ، ص 15.

50 فاروق مصطفى – المقدمة في الأنثروبولوجيا الثقافية وعلاقتها بالأنثروبولوجيا العامة – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 2007 ، ص

35.

51 محمد عباس إبراهيم – الأنثروبولوجيا – علم الإنسان ، مرجع سابق ، ص 125.

52 فاروق مصطفى – المقدمة في الأنثروبولوجيا الثقافية وعلاقتها بالأنثروبولوجيا العامة – مرجع سابق ، ص 35.

الوصفية لظاهرة من الظواهر في سائر اتحاد المجتمعات فإن الإثنولوجيا هي الدراسة الرأسية لمظاهر الثقافة بشقيها المادي واللامادي وهذا يعني أن الدراسة الإثنوغرافية هي دراسة في المكان أما الدراسة الإثنولوجية فهي دراسة في الزمان ⁵³ .

2- **علم الآثار** : يدرس علم الآثار ماضي الإنسان ويرمي إلى تحديد التغير الثقافي على ممر العصور، ويختلف علماء الآثار وعلماء التاريخ ، حيث يدرس علماء التاريخ الفترات المسجلة كتابة ، بينما يهتم علماء الآثار بالفترات والمراحل التاريخية الطويلة التي قضاها الإنسان قبل اكتشاف القراءة والكتابة . ويتعاون علماء الآثار في أبحاثهم مع المؤرخين والأنثروبولوجيون باختلاف تخصصاتهم وذلك لكثرة تواجد الحفريات الإنسانية مع البقايا الثقافية .

3- **علم اللغويات** : تعد اللغة الأداة التي ينقل بها الناس معارفهم ومعتقداتهم وعاداتهم من جيل إلى جيل ، كما أنها أداة التعبير عن الأفكار وهي وسيلة الاتصال الرئيسية بين البشر. وقد بدأ الاهتمام بدراسة اللغات منذ القرن السابع عشر وتضاعف في القرن 18 ، وقد تطورت اللغويات باعتبارها فرعا متخصصا من الأنثروبولوجيا حينما قام علماء الأنثروبولوجيا بإجراء دراسات ميدانية أجبرتهم على تعلم العديد من اللغات البدائية وذلك حتى يتسنى لهم من التعامل مع أبناء المجتمعات المحلية البدائية الذين يقيمون بدواستها . وتعد اللغويات الأنثروبولوجية أحد ميادين الدراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية ، ويبحث الأنثروبولوجي المتخصص في اللغويات عن أصل اللغة وأشكالها الرمزية ومحاولة تحليل بنائها . كما يولي العديد من الباحثين اهتماماتهم بدراسة اللهجات المحلية وعلاقتها باللغة الأم. والعلاقة بين اللغة والمركز الاجتماعي، والعلاقة بين اللغة والرموز التي تستخدم في أداء الشعائر الدينية وتلك التي تستخدم في الحياة اليومية والصور والأشكال والتغيرات المستخدمة للتعبير عن النواحي الجمالية في ثقافة ما ⁵⁴ .

الاتجاهات المختلفة في تحديد مجال الثقافة :

هناك اتجاهين مختلفين في تحديد مجال الثقافة هما :

1- **الاتجاه الواقعي** : من أقطاب هذا الاتجاه تايلور وبواس وديكسون وليندو كلهم ينظرون إلى الثقافة كصفة تميز السلوك الإنساني وعادة ما تجددهم يعرفون المفهوم بلغة اكتساب العادات والتقاليد ، ويرى هؤلاء أنه لوجود ثقافة لا بد من وجود زمرة اجتماعية تمارسها وتتوارثها ،

⁵³ قباري محمد إسماعيل – أسس علم الإنسان – الأنثروبولوجيا – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية – مصر 1989 ، ص 26.

⁵⁴ فاروق إسماعيل – مرجع سابق ، ص 35.

والثقافة عندهم تعني في المقام الأول التراث الثقافي الملموس ، كما لا يغفلون النظم والعادات وقواعد العرف التي توجد في المجتمع وتوجه سلوك الناس وتصرفاتهم بل ترسمه⁵⁵ أي أن دعاة الاتجاه الواقعي يجمعون بين الجانبين المادي والمعنوي .

2- **الاتجاه المثالي** : من أقطاب هذا الاتجاه لينتون ، كلاكهون ، كروبير و سوروكين ويعتبر هؤلاء الثقافة مجموعة من الأفكار والتصورات في عقول الأفراد أو أنها مفهومات مألوفة ومدركة⁵⁶ ، أو أنها مجموعة المعايير والأنماط الذهنية التي توجه السلوك الاجتماعي.

خصائص الثقافة :

تتميز الثقافة بمجموعة من الخصائص منها :

- 1- **مكتسبة** : أي أنها الفرد يكتسبها بالتعلم من المجتمع الذي يعيش فيه باعتبارها التراث الاجتماعي .
- 2- **الاستمرار والتنقل والتراكم** : حيث أن للسمات الثقافية قدرة هائلة على الانتقال عبر الزمن . كما أن الكثير من السمات الثقافية كالعادات والتقاليد والعقائد وغيرها تحتفظ بكيانها لعدة أجيال.
- 3- **التكامل** : فالأنثروبولوجيون يصرون على أن الكلية والشمول هي إحدى السمات المميزة لعملهم لأن مختلف العناصر الثقافية مترابطة ومتداخلة ذلك أن القدر الأكبر من السلوك البشري يمثل أنساقا ترتبط بعضها ببعض في البعض الآخر.
- 4- **التعقد** : الثقافة كل معقد لاشتمالها على عدد كبير من السمات والعناصر ويعود ذلك التعقيد إلى تراكم التراث الاجتماعي . ولا يقتصر بعقد الثقافة على كثرة وتشابك السمات الثقافية التي تدخل في تكوين الثقافة في أي مجتمع من المجتمعات سواء كانت بدائية أو غيرها.
- 5- **أداة التكيف** : يقصد بالتكيف المحاولات التي يستخدمها أفراد مجتمع معين للتكيف مع البيئة الطبيعية والاجتماعية حتى يتسنى لهم البقاء والاستمرار في ذلك المجتمع ، وتتميز الثقافة بالتغير وذلك من أجل التكيف والتوافق مع مختلف أشكال البيئة سواء كانت جغرافية أو غيرها . فكلما تغيرت ظروف الحياة عجزت الأشكال التقليدية عن توفر القدر اللازم من الإشباع ،

⁵⁵ أحمد أبو زيد - البناء الاجتماعي - مدخل لدراسة المجتمع - الجزء الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية 1975 ، ص 233 .

⁵⁶ أحمد أبو زيد - المرجع السابق ، ص 195

ومن تم تتكمش وكلما ظهرت حاجات جديدة وأصبحت موضع اقتناع استخدمت توافقات وتكيفات ثقافية جديدة لإشباعها⁵⁷.

6- **الثقافة اشباعية** : تشبع الثقافة وبالضرورة الحاجات البيولوجية وكذا الحاجات الثانوية ، وقد اهتم مالفينوسكي بهذا اهتماما كبيرا خاصة فيما إذا كانت مكونات الثقافة تمد أفراد المجتمع بحد أنى من الإشباع .

7- **الثقافة انتقائية** : يرى ابن خلدون أن التغير الاجتماعي إنما يتم برفض عناصر من ثقافة الأجيال السابقة والإبقاء على البعض وإضافة عناصر ثقافية جديدة انطلاقا من واقع الأجيال الجديدة.

8- **الثقافة اجتماعية** : تدرس الثقافة في الجماعات والمجتمعات وذلك لأنها عادات المجتمع وإذا قام الأنثروبولوجي بدراسة سلوك الأفراد ليستنتج عنها تلك الدراسة أنماط الثقافة ، فإنه يدرس هؤلاء الأفراد بصفاتهم أعضاء في جماعة وتقسّم النظم الثقافية إلى عموميات وخصوصيات وبدائل.

9- **التنوع والنسبية** : تتصف الثقافية بأنها ظاهرة إنسانية توجد في كل المجتمعات ولا يعني ذلك أنها متطابقة أو متشابهة في مختلف المجتمعات إذ أن الثقافة تختلف من مجتمع لآخر وبالتالي فهي نسبية أو لها خصوصيتها المميزة . ومن ثم فإنه لا يمكن فهم وتفسير الثقافات أو الظواهر الثقافية على وجه صحيح إلا إذا نظرنا إلى الظواهر التي نقوم بدراستها بالنسبة إلى البيئة الموجودة بها وإلى الدور الذي تؤديه في نسق اجتماعي وثقافي أكبر وأنه بالتالي ليست هناك قيم شاملة مطلقة⁵⁸.

قائمة المراجع :

- 01- أحمد أبو زيد – البناء الاجتماعي – مدخل لدراسة المجتمع – الجزء الأول – الهيئة المصرية العامة للكتاب الإسكندرية 1975
- 02- أحمد زكي بدوي – معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية – مكتبة لبنان بيروت .
- 03- بيلز رالف وهوجر هاري – مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة – ترجمة محمد الجوهري وآخرون – دار النهضة المصرية ، القاهرة 1977 .
- 04- سامية محمد جابر – علم الإنسان – مدخل إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية – دار العلوم العربية – بيروت لبنان 1991 .
- 05- عيسى الثماس – مدخل إلى علم الإنسان – "الأنثروبولوجيا" – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق 2004 .

⁵⁷ سامية محمد جابر – علم الإنسان – مدخل إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية – دار العلوم العربية – بيروت لبنان 1991 ، ص

29.

⁵⁸ أحمد زكي بدوي – معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية – مكتبة لبنان بيروت ، ص 140.

- 06- فاروق مصطفى – المقدمة في الأنثروبولوجيا الثقافية وعلاقتها بالأنثروبولوجيا العامة – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 2007 .
- 07- قباري محمد إسماعيل – أسس علم الإنسان – الأنثروبولوجيا – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية – مصر 1989 .
- 08- محمد الخطيب – الأنثروبولوجيا الاجتماعية – دار علاء الدين ، دمشق سوريا ط2 2008 .
- 09- محمد عباس إبراهيم : الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) – دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 2009 .

الثقافة والبناء الثقافي

أولاً- مفهوم الثقافة : الثقافة هي الكل المعقد و المتراكم و المتفاعل من المعرفة و العقائد و الفنون و الآداب و الأخلاق و العادات، وكل ما يصل إلى الإنسان من المجتمع. ويعرفها رالف لينتون بأنها

الوراثة الكلية للجنس البشري، كما تعني كذلك تلك الصفوة المختارة من الوراثة الاجتماعية⁵⁹. كما تعرف بـ:

- كل مركب يشتمل على المعرفة و المعتقدات و الفنون و الأخلاق و القانون و العرف و غير ذلك من الامكانات أو العادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع⁶⁰.
- هي النمط الكلي لحياة شعب في العلاقات الشخصية بين أفراد و كذلك توجهاتهم⁶¹. و تتكون الثقافة من القيم من القيم و المعتقدات و المعايير أو التفسيرات الفعلية و الرموز و الايديولوجيات و ما شابهها من المنتجات الفعلية.

الخصائص العامة للثقافة: تتمثل أهم خصائص الثقافة فيما يلي:

- استقلالها عن الأفراد الذين يحملونها و يمارسونها في حياتهم اليومية
- الاستمرار و هي خاصية تابعة و متصلة بالتراث الاجتماعي الذي يرثه أعضاء المجتمع عبر الأجيال.
- إن السمات الثقافية لها قدرة هائلة على الانتقال عبر الزمن، بل أن الكثير منها خاصة التقاليد و العقائد تحتفظ بكيانها لعدة أجيال حتى بعد زوال السبب الذي أدى إلى ظهورها.
- خاصية التعقيد، إن تعقيد الثقافة يعني أن الفرد لا يستطيع اكتساب جميع عناصر الثقافة السائدة في المجتمع الذي ينتمي و يعيش فيه. و يرجع التعقيد إلى تراكم التراث الاجتماعي عبر عصور طويلة و إلى استعارة كثير من السمات الثقافية من خارج المجتمع نفسه⁶².
- خاصية الانتشار، يعرف الانتشار الثقافي بأنه انتشار عنصر ثقافي من جماعة أو مجتمع إلى جماعة أو مجتمع آخر، و هو عملية اجتماعية أكثر فردية. و يرى تايلور أن هجرة العناصر الثقافية أو انتقالها و استعارتها من مجتمع لأخر عملية مقررة نشاهدها بأعيننا في المجتمعات الحالية⁶³. و يتطلب الانتشار الثقافي قواعد حتى يتم. و أنه كلما تقاربت الجماعتان اللتان تمتلكان نفس النمط الثقافي كان ذلك أقرب إلى القول بأنهما اتخذتا من نفس المصدر أو أن أحدهما استعارته من الأخرى.

59 محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، الدار التونسية للنشر ط1، 1991 ص 47

60 النوري قيس، طبيعة المجتمع البشري في ضوء الانثروبولوجيا، دار الحكمة للنشر بغداد 1983 ص 120

61 النوري قيس، المدخل إلى علم الإنسان، دار الكتب للطباعة الموصل 1983 ص 99

62 أبو زيد أحمد، البناء الاجتماعي الجزء الأول المفاهيمات، الدار القومية للطباعة و النشر الأسكندرية ص 185

63 محمد السويدي - المرجع السابق ص 153

- كما أنه كلما زادت الملامح المشتركة بينهما زادت احتمالات وجود اتصال بينهما عن طريق الانتشار⁶⁴.

نظريات الثقافة:

1- نظرية أسلوب النظر إلى الحياة: هي نظرية لرايد فيلد الذي يعرف أسلوب النظر إلى الحياة بأنه النظرة الخارجية للوجود كما يرى بأن بعض عقائد النظرة للحياة هي عموميات نفسية وهي:

- الاعتقاد بتقسيم الأشياء إلى الأشياء المتعلقة بالنفس و الأشياء الخارجة عن النفس

- الاعتقاد بتقسيم الأشياء الخارجة عن النفس إلى أشياء إنسانية و أشياء مادية.

- الاعتقاد بالتمييز بين السماء و الأرض و بين الليل و النهار و بين الولادة و الوفاة⁶⁵.

إن نظرية رايد فيلد جاءت نتيجة لدراساته الأنثروبولوجية التي قام بها على المجتمعات البدائية إذ لاحظ إن أسلوب الحياة في هذه المجتمعات يتميز بالخصائص التالية:

أ - عدم وجود فاصلة بين النفسي و اللا نفسي فالفرد البدائي يميل إلى رؤية نفسه متحدًا مع الطبيعة

ب- أن الإنسان البدائي يشارك في المحافظة على النسق الواحد.

ج- للإنسان البدائي العلم ذات دلالة أخلاقية على اعتبار أن كل شيء في الطبيعة حي⁶⁶.

2- نظرية شخصيات المركز: تم اشتقاق نظرية شخصيات المركز للنتون من نظرية روث بندكت

سجية الثقافة ويرى لنتون إن شخصيات المركز مثل مركز الأب، مركز الأم مركز الجد، مركز

المحارب لا تناقض والبناء الرئيس للشخصية في المجتمع و إنما تتكامل معه و لنتون من خلال هذا الطرح يؤكد مبدأ التكامل الثقافي الذي هو أساس نظرية الصيغة الكلية⁶⁷.

3- نظرية الشخصية المنوالية: يقصد بالمنوالية إن متغيرًا ما يتمتع بأعلى تكرار في توزيع ما، إذ أن

الشخصية المنوالية مفهوم احصائي يشير إلى نمط الشخصية الذي يخرج بأكثر عدد من التكرارات بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع واحد⁶⁸.

⁶⁴ المرجع السابق ص 154

⁶⁵ همام حسن و آخرون ، مدخل إلى علم الاجتماع ، دار المعارف القاهرة 1982 ص 180-183

⁶⁶ الساعاتي سامية، الثقافة و الشخصية، مركز الكتب الثقافية القاهرة 1983 ص 243

⁶⁷ الساعاتي سامية ، المرجع السابق ص 87

⁶⁸ العبيدي ناظم ، علم نفس الشخصية ، دار الحكمة للنشر 1990 ص 53

و يؤكد لينتون أن نظرية الشخصية المنوالية يختلف عن نظرية البناء الأساسي لكاردينر لأن الشخصية المنوالية يمكن أن تصاغ بطريقة موضوعية بواسطة تكرارات الشخصية المختلفة بين أعضاء المجتمع فهو يركز على الجوانب الكمية في حين نجد البناء الأساسي للشخصية يركز على الجانب الكيفي.

قائمة المراجع :

- 01- أبو زيد أحمد، البناء الاجتماعي الجزء الأول المفاهيم ، الدار القومية للطباعة و النشر الإسكندرية .
- 02- الساعاتي سامية، الثقافة و الشخصية، مركز الكتب الثقافية القاهرة 1983 .
- 03- العبيدي ناظم ، علم نفس الشخصية ، دار الحكمة للنشر 1990 .
- 04- محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته، الدار التونسية للنشر ط1، 1991 .
- 05- النوري قيس ، المدخل إلى علم الإنسان ، دار الكتب للطباعة الموصل 1983
- 06- النوري قيس، طبيعة المجتمع البشري في ضوء الأنثروبولوجيا ، دار الحكمة للنشر بغداد 1983 .
- 07- هماد حسن و آخرون ، مدخل إلى علم الاجتماع ، دار المعارف القاهرة 1982 .

هيمس دال و أنثروبولوجيا التواصل

انثوغرافيا التواصل (EOC) وهي كلمة مختصرة من (The Ethnographie of)

(Communication)، والتي تسمى في الأصل انثوغرافيا التحدث والخطاب، وهي العلم

الذي يهتم بتحليل التواصل ضمن السياق الواسع والذي يشمل الممارسات الاجتماعية

والثقافية واعتقادات أعضاء ثقافة معينة أو مجتمع كلام معين. يستتبط علم انثوغرافيا

التواصل من البحث الاثنوغرافي، والتي تعد الطريقة المستخدمة لتحليل الخطاب في علم اللغة، كما أنها تعتمد في تحليل الكلام والخطاب اللغوي على المجال الأنثروبولوجي للإثنوغرافيا. ولكن تعد الإثنوغرافيا الأصولية مغايرة لإثنوغرافيا التواصل، فتأخذ إثنوغرافيا التواصل عدد من الأمور والعناصر اللغوية في الحسبان ومنها، الشكل التواصلية والذي قد تشتمل على عدة عناصر (لا الحصر)، على سبيل المثال اللغة المنطوقة ووظيفتها داخل الثقافة المعينة.

الأهداف العامة لإثنوغرافيا التواصل: وكما تشمل الأهداف العامة لهذا العلم على طريقة البحث النوعي والقدرة على تمييز الأفعال والرموز الخطابية في الاتصال والتي تعتبر مهمة للغاية للمجموعات الكلامية المختلفة، وبالإضافة إلى أنواع مجموعات المعاني التي تقوم مختلف المجموعات الخطابية باستخدامها وذلك لتلبية حاجاتهم المتعددة في الاتصال، وكيفية تعلم أعضاء المجموعة الأفعال والرموز الخطابية؛ وذلك من أجل توفير النظرة عن مختلف المجتمعات الخطابية. كما أنه يمكن استخدام هذه النظرة لتعزيز وتدعيم التواصل مع أعضاء المجموعات المختلفة، وفهم قرارات أعضاء المجموعة، بالإضافة إلى التمييز بين المجموعات عن بعضها البعض.

أصل إثنوغرافيا التواصل: يعد العالم اللغوي ديل هايمز إثنوغرافيا التواصل بأنه عبارة عن نهج يقوم بتحليل أنماط وعناصر استخدام اللغة داخل المجتمعات اللغوية المختلفة؛ وذلك من أجل تقديم الدعم الكامل فيما يتعلق بفكرته الخاصة بدراسة الكفاءات التواصلية المختلفة، والتي كانت في عبارة عن ردة فعل على التمييز بين الأداء اللغوي والكفاءة اللغوية من قبل عالم اللغة نعوم تشومسكي. كما سميت ورقة بحث اللغوي ديل هايمز بإثنوغرافيا الكلام وكان هذا في عام 1962، كما أنه تم إعادة صياغة مقالته وإعادة تسميتها في عام 1964 فكان اسمها “مقدمة نحو إثنوغرافيا الاتصال”؛ وكان ذلك لاستيعاب الخصائص والسمات الصوتية وغير اللفظية وغير المسموعة للتواصل على الرغم من ديمومة الأبحاث المتعلقة بإثنوغرافيا الاتصال واستمرار تركيز الباحثون في

هذا المجال على الكلام والذي يعد أهم وسيلة اتصال يعرفها البشر على الرغم من كونها الطريقة البدائية.

المعنى الدقيق لإثنوغرافيا التواصل :كما يُقصد بمصطلح إثنوغرافيا الاتصال بوصف الخصائص التي يجب أن يعتمد عليها النهج اللغوي تجاه اللغة وذلك بالطبع من منظور علم أنثروبولوجية الاتصال. ووفقاً للغوي ديل هايمز يجب علينا التحقق وبشكل مباشر في استخدامنا للغة في سياقات المواقف؛ وذلك حتى يتسنى لنا التمييز بين الأنماط اللغوية المناسبة لأنشطة الكلام المختلفة وأخذ المجتمع الخطابي المحيط كسياق لغوي معتمد والتحقق من عادات التواصلية المختلفة. وبعبارة أخرى بدلاً من فصل الأشكال اللغوية للمجتمعات عن وظيفتها يجب أن يتم التأكد من تحليل تواصل الثقافة أو المجتمع اللغوي المحيط فيما يتعلق بالسياق الاجتماعي والثقافي واستخداماته ووظائف المعاني والكلمات الاصطلاحية المنقولة بين أفراد المجتمعات. كما يذكر علماء اللغة ليتل جون وفوس أن العالم اللغوي ديل هايمز يقترح بأن يمكن للثقافات أن تتواصل بطرق مختلفة ولكن جميع أشكال الاتصال تتطلب رمزاً مشتركاً ومتصلين يعرفون ويستخدمون الرموز والأفعال ومجرى التواصل اللغوي، بالإضافة إلى أساليب ونماذج الرسالة اللغوية وموضوعها والحدث الأساس الذي يشغلها، وكل ذلك يتم إنشاؤه عن طريق نقل الرسالة اللغوية.

إن التواصل لا يتم فقط من خلال الكلام، وإنما أيضاً عبر الحركات وأوضاع الجسد وطرق احتلال الفضاء. كل ذلك ضمن سياق ما. ولعل ذلك هو تصور انتروبولوجيا التواصل وهو كمجال واعد. مع أنه غير مستثمر بما فيه الكفاية. نشر في سنة 1967

الأنثروبولوجي وعالم اللسانيات الأمريكي Dell Hymes هيمس دال نصا عنوانه: انتروبولوجيا

التواصل. لم يكن قصده بذلك تأسيس علم جديد. كان يتوخى فقط التذكير بأن من واجب

الانتروبولوجيا أن تأخذ بعين الاعتبار التحديدات المحلية للتواصل. ففي المجتمعات

الحديثة فإن التواصل يشير إلى تبادل المعلومات بين شخصين أو نقل الرسائل عبر وسائل الإعلام. ولكن ماذا يُقصد بالتواصل في سياقات أخرى؟ في ثقافة هنود أوجيبوا على سبيل

المثال هناك اعتقاد بأن الآلهة تتحدث إلى الناس من خلال البرق، وبأن الأحجار هي

علامات وضعتها الآلهة في الصحراء لمساعدة الناس على عبورها. كما أن شيوخ قبيلة

زيني الذين يسمعون في الليل الدامس الذئب تعوي يزعمون بأن لهم القدرة على إعادة

تأويل تلك ”الأحاديث” لفائدة الشباب. إذا كانت هذه الوقائع كلها، حسب ديل هايمز، لها

صلة بالتواصل، فإنه يجب أن نُدرج ضمن ”مذخرات التواصل” لمجتمع ما جميع

الفاعلين الذين أُسندت إليهم من قبل الأفراد مقصدية التواصل (الآلهة الأموات والحيوانات..).

فضلا عن الوسائل التي هي بحوزة هذه الكائنات (بروق، أحجار، نباح إلخ) والتي

يستعملونها للحديث مع الناس أو للحديث فيما بينهم.

يقول هيمس دال : « في جميع الثقافات أو في جميع الجماعات فإن السلوك والأشياء باعتبارها منتوجات سلوكية تكون بشكل منظم وتستعمل ويتم تداولها وتأويلها حسب قيمتها التواصلية. إن كل سلوك وكل شيء يمكن أن يكون تواصلية. كما أن سجل الإمكانيات التواصلية لهو أكثر سعة وإيحاء من أن تُفصح عنه نظرتنا المعتادة للكلام » ومن الأكيد أن قائمة السلوكات والأشياء التي لها قيمة تواصلية تختلف من مجتمع إلى آخر. حتى وإن عمل العالم الانتروبولوجي على إعادة تأسيس مجال التواصل شيئاً فشيئاً داخل الجماعة التي يدرسونها فإن هذه المهمة لم تتحقق على الوجه الأكمل في أي مجتمع من المجتمعات. ومع ذلك يبقى طرح ديل هايمز أساسياً وذلك الاعتبار ثلاث هي : 1- أولاً لقد وسع مفهوم التواصل مدرجا في طياته المقصدية المسندة إلى المرسل من قبل المتلقي. وهكذا فإن المرسل يمكن أن يكون إلهاً، ويمكن أن تكون الرسالة عبارة عن أحجار. ولفت انتباه الباحثين في التواصل إلى أن الانتروبولوجيا بمقدورها أن تمدهم بمقاربات نظرية ومنهجية مختلفة عن تلك التي تعودوا عليها (لاسيما تحليل المضامين المطبق على الرسائل الإعلامية). وأخيراً فإنه وضع أسس حقل معرفي جديد يستحق أن يُدرج ضمن علوم الإعلام و التواصل. وهو الهدف الذي أولاه الباحثون في فرنسا وخارج فرنسا اهتماماً كبيراً، وذلك من خلال إعادة تعريف التواصل انطلاقاً من المحيط الذي انبثق منه، ومن المناهج التي سيتم توظيفها. والحقيقة أنه لن ننتهي أبداً من إعادة تعريف التواصل لأننا سنرجع دوماً إلى التناوب ذاته بين رؤية ضيقة للتواصل ورؤية أكثر شمولية.

الثقافة باعتبارها تواصلاً: يُعد التعريف الأول تعريفاً مناسباً وكلاسيكياً لأنه يميز التواصل على غرار المناهج التي تختص بنقل المعلومات. فنحن نتحدث في حياتنا اليومية عن التواصل كظاهرة تُعنى بإرسال واستقبال الكلام والحروف والعلامات والصور إلخ. وغالباً يندرج البحث المتخصص في مجال التواصل ضمن هذه الأبعاد: سوسيولوجيا الإعلام وسيكولوجيا التفاعل والتكنولوجيا الحديثة التي لا تتوقف في أسسها النظرية بخصوص بناء نماذج أو في تحليلاتها، عن تعريف تلغرافي للتواصل. لنفترض أن المرسل A بعث رسالة X إلى المتلقي B بفضل الدعامات Z إلخ. يمكن للمصطلحات أن تتغير. أما الخطأ الأساسية فستبقى كما هي دون تغيير. إن توسيع هذه الخطأ هو اختيار للطريق الصعب لأن الحس المشترك سيجد نفسه مشوشاً، ولأن الأبحاث لم تسلك بعد هذا الطريق. يقتضي الأمر إذاً ألا نتصور التواصل كأنه ظاهرة خاصة ومحددة، وإنما يجب أن ننظر إليه باعتباره تصوراً مستقطباً، ويسمح بالنظر وفق رؤية مختلفة إلى العلاقات بين الفرد والمجتمع وبين المجتمع والثقافة.

سُعرِف التواصل حسب هذا المنظور بأنه مجموع الأفعال التي تستخدم يوميا البنيات المؤسسة لمجتمع ما. إن تحيين الثقافة في الحياة اليومية عبر الحركات تشكل في مجموعها “التواصل”. ويجب على الباحث الذي يُغامر في إعادة التأسيس أن يزيح أمام ناظره عائقا رئيسيا ألا وهو النظر إلى التواصل كأنه “أداء للثقافة” لأنه تعريف مجرد. واستنادا إلى هذا التعريف لن ندرك بوضوح طبيعة علاقته بتعدد الوقائع المشكلة له، ومن ثم هناك احتمال أن يُرفض هذا التعريف من قبل النظراء والقراء معا. وبدءا من الآن يجب الرجوع إلى مؤسسي المفهوم الموسع للتواصل أمثال الباحثين ضمن تيار “المجمع غير المرئي” (Collège invisible) الذين يمثلون التواصل الجديد أو أيضا أعضاء مدرسة (Palo Alto) أصحاب الصيغة الملغزة: “لا يمكن ألا نتواصل” التي أصبحت مشهورة بفرنسا. والمقصود بذلك أن أي عنصر من عناصر الزمن أو المكان أو الإطار له حضور في حياتنا له القابلية لأن يكون عنصرا من عناصر التواصل.

لقد أوضح الأنثروبولوجي راي بيردويستل هذا كله في مثال مثير للانتباه: « إن أي طالب لم يسبق له أبدا أن تلقى مكالمة هاتفية في مخدعه في أمسية من الأمسيات سيدرك تماما مقدار الضوضاء الصادرة عن هاتف لا يرن». وهنا إشارة واضحة إلى المواعيد الشائعة بين الطلبة في الحرم الجامعي الأمريكي مساء كل جمعة. في هذا الإطار إن الهاتف الذي لا يرن هو رسالة فعلية. إن الفكرة التي يريد هذا الأنثروبولوجي تبليغها هي أن التواصل لا ينحصر في النقل الطوعي للمعلومات اللفظية وإن الثقافة تتضمن بعض الانتظارات. وإذا لم تتحقق هذه الانتظارات فهذا يعني أنها تحمل دلالة ما. و تفتح هذه الملاحظة الباب واسعا أمام تصور لا حد له بخصوص من له القابلية والاستعداد لكي يكون مكونا من مكونات التواصل. وإذا كان الهاتف الأخرس يملك القدرة على قول شيء ما، فإن أشياء أخرى كثيرة لها أيضا مثل هذه القدرة. إن التواصل حسب راي بيردويستل لا يُحدد فقط في الرسالة و لا حتى في التبادل أو التفاعل، وإنما يقتضى أيضا أن يتضمن النسق والسياق الذي يجعل منها جميعها أمرا ممكنا، والذي يمكن أن يؤدي إلى عدم توارد القيمة الإخبارية المناسبة لرسالة تم إصدارها ضمنا. ومع ذلك يمكن أن نلاحظ، على المستوى التطبيقي، أن نظرية مجموعة بالو آلتو اهتمت أساسا بديناميكية الأزواج والأسرة حتى وإن كان (Gregory Bateson) كريكوري باتسن الذي أسس من الناحية الفكرية هذه الحركة فكر في الأمر بعبارات فضفاضة بصفته ممثلا لأنثروبولوجيا النظم الإنسانية. ودون الوصول إلى تعريف جامع مانع .

أسس أو مبادئ التواصل :- إن التواصل ظاهرة اجتماعية بمعنى أن أي فعل لإرسال الرسالة سيُدرج داخل إطار أوسع يماثل في اتساعه الثقافة. إن هذا الإطار هو الذي يُطلق عليه اسم التواصل الاجتماعي. وهو يُشكل مجموع “السنن” والقواعد التي تمكن من القيام بتفاعلات وعلاقات بين أعضاء ثقافة بعينها، والتي يبقى عليها في نوع من الاطراد والتوقع. إن الفرد يُنظر إليه على أساس أنه فاعل اجتماعي أو مشارك في وحدة أوسع.

– المشاركة في التواصل. تحدث هذه المشاركة وفق أنماط متعددة، لفظية وغير لفظية، والتي يمكن أن تكون موضوعا لمقاربات خاصة بها: اللسانيات الموازية paralinguistique والإبلاغ الحيزي proxémique والكينيزية Kinésique haptique الإدراك عبر اللمس. وتُعتبر الأنشطة التواصلية، في غالب الأحيان، أنشطة للمراقبة وللتأكيد ولالإدماج حيث يؤدي الحشو دورا هاما. وهكذا فإن المضمون الأقل شأنًا من السياق، والمعلومة الأقل شأنًا من الدلالة، هو ما يطمح الباحثون في التواصل الاجتماعي إلى الإحاطة به.

– المقصدية لا تحدد التواصل. حينما يتحدث شخصان لغة معينة، فإنهما يشتركان في نسق كان موجودا قبلهما، وسيظل باقيا. بعبارة أخرى إن الفعل الذي تحقق هنا والآن (أن التفاعل) ليس إلا لحظة داخل حركة أرحب هي الثقافة كباعثة قوية للمعلومات.

– التواصل الاجتماعي يمكن أن ينظر إليه في ضوء مفهوم الأوركسترا. إن أعضاء ثقافة ما يشاركون في التواصل شأنهم في ذلك شأن الموسيقيين المشاركين في الأوركسترا. غير أنه لا وجود للمايسترو ولا لأي توزيع موسيقي. إنهم يتعاونون فيما بينهم.

– إن الملاحظ هو بالضرورة جزء لا يتجزأ من الأوركسترا. حتى وإن كان ينتمي إلى مجتمع آخر. وعليه فإن الطريقة الوحيدة لدراسة فعل التواصل هي الملاحظة المشاركة على غرار علماء الانثروبولوجيا.

الميدان والمذكرات والمعطيات: أسند لانثروبولوجيا التواصل تعريف طموح جدا: إن التواصل يتعايش مع الثقافة. كيف نحقق ذلك مستقبلا؟ الجواب: أن ذلك سيتم من خلال الدراسة الفاحصة لمجالات محددة بشكل دقيق. سواء تعلق الأمر بأماكن عامة (رصيف المحطة) أو شبه عامة (ساحة مقهى) أو خاصة (الصالون العائلي) أو أماكن العمل (استوديو قناة تلفزيونية) أو إقامة (دار المسنين) أو مكان استجمام (نادي سياحي). يجب أن نلاحظ السلوكات التي تحدث هناك، وأن نصفها بعناية فائقة في مذكراتنا ما استطعنا إلى

ذلك سبيلا. سنتحدث عن الخطوات الإثنوغرافية لوصف هذا النوع من المقاربات. تركز الإثنوغرافيا في ارتباطها مع انثروبولوجيا التواصل على ثلاث مهارات أو كفاءات:

القدرة على الملاحظة والرؤية والقدرة على التواصل (مع الآخرين) والقدرة على التحرير. إن هذه المهارات الثلاث يمكن أن تُمارس في أي ميدان أو أي مكان أو أي مجموعة اجتماعية. إن الانثروبولوجيا الحديثة لا تُحدد انطلاقا من الأشياء التي بحوزتها، وإنما اعتمادا على نظرتها إلى هذه الأشياء التي سيتم استثمارها عبر العلاقات التي تُعقد مع الفاعلين الاجتماعيين وعبر الكتابة التي تُستعمل لجعل التجربة واقعا حيا ومعاشا. إن انثروبولوجيا التواصل تشارك بشكل كامل في هذا الموقف المتواضع والطموح في نفس الآن. إنه موقف متواضع لأن كل شيء ينطلق من المعطيات ويعود إليها، والتي جُمعت بشكل يكاد أن يكون عفويا، وذلك من خلال التحرير اليومي للمذكرات حيث تُدون فيها الملاحظات والأفكار والأحاسيس. إنه موقف طموح لأن الهدف النهائي هو المساهمة العلمية في دراسة الثقافة في حالة الفعل كيفما كانت أبعاد الميدان الذي ندرسه. في الواقع «إن ما هو كوني يجثم في قلب ما هو خاص»: وبقدر ما تكون الدراسة دقيقة بقدر ما تسمح بتفكيك “نماذج” الثقافة، والاطرادات التي تشكل قاعدة للإنتاج اليومي للمجتمع. وهكذا فإن Natacha Adam اندمجت خلال عام كامل بين تلامذة مدرسة ابتدائية في لياج ينحدر المسجلون فيها من أصول ثقافية مختلفة (باتفاق مسبق مع هيئة التدريس). كانت في ركن قصي من قاعة التدريس لا تغيره على الإطلاق تراقب عن كثب التفاعل بين المُدرسة وتلامذتها، وفي الظهيرة كانت تراقبهم وهم في الساحة. وفي المساء تُدون في مذكرتها الأحداث الصغيرة التي وقعت خلال اليوم.

إن السؤال الجوهرى بالنسبة إليها كان هو: كيف كان التواصل البين ثقافي يتحقق يوميا؟ ما هي الأنماط اللفظية وغير اللفظية التي يوظفها الأطفال لبناء الاختلاف. لقد وصفت في كتابها كلمات السب التي يُطلقها الأطفال في وجه بعضهم البعض «tu pues» ولكن أيضا رقصات “الزولو” التي يدعو فيها الأطفال الأفارقة رفقاءهم للمشاركة فيها أمام دهشة المعلمات. ما عاشته ناتاشا آدم بلييج كان يمكنها أن تعرفه خارج أوروبا أو حتى في الولايات المتحدة الأمريكية. من المؤكد أن كل بلد يعرف إيديولوجيا مختلفة عن التعدد الثقافي (موقف المدرسة الفرنسية الاندماجية مثال بارز لذلك). غير أن ناتاشا آدم وجدت بهذه الطريقة بعض النتائج التي تمخضت عن أبحاث أمريكية لكل من Tracy Kidder أو S. Brice Heath. لقد استبقت الأعمال المهمة لـ Julie Delande. إن عمل ناتاشا آدم يتموقع في الهُنا والآن في مدرسة صغيرة بلييج غير أنه يسمح بالتفكير في العلاقات ما بين ثقافية الطفولية بشكل أكثر عمومية.

انثروبولوجيا OVNI

إن رهان التعميم تقوم به انثروبولوجيا التواصل كأى انثروبولوجيا. إن العمل يُنجز بالعسر أو اليسر. غير أن الهدف النهائي هو أن نضع بين يدي القارئ معرفة شاملة. سيكون هذا الرهان طموحا بخصوص انثروبولوجيا التواصل لأنها ستكون وجهها لوجه أمام ملاحظة في غاية الغرابة. إنها تريد الاشتغال انطلاقا من أشياء غير محددة.

في الواقع إن انثروبولوجيا التواصل المقترحة من قبل D.Hymes حددت موضوعها في المذخرات التواصلية الخاصة بكل مجتمع على حدة. إنه برنامج ضخم لم يسبق له أن تحقق. لكنه يُمكن على الأقل من فهم فوري لما تريد الانثروبولوجيا دراسته. بخصوص انثروبولوجيا التواصل “الموسعة” حيث يصبح التواصل أداء للثقافة، ليس هناك موضوع ملموس للدراسة. والسؤال المطروح هو: هل هذا التواصل الانثروبولوجي مهدد منذ الآن بالانصهار في النظريات الصارمة؟ الجواب بالنفي وذلك لأسباب ثلاثة. أولا ستظل انثروبولوجيا التواصل في غاية الوضوح بفضل اعتمادها على المنهج الإثنوغرافي. كما تركز على الفضاءات الحية، والمواقف الواقعية، والتجارب الإنسانية التي تستمد منها تعاليم محددة حول أنماط الثقافة في الحياة اليومية. وثانيا لأن انثروبولوجيا التواصل تُحدد ليس كمادة معرفية، ولكن كإطار، أو كمنظور، أو كشكل تسمح بالعمل وفق تجانس نظري ومنهجي. إنها انثروبولوجيا تواصلية كما أن هناك انثروبولوجيا مرئية، أو معرفية، أو سمبوطيقية. وتمتد انثروبولوجيا التواصل الباحثين في مجال التواصل بالوسائل التي تُسخر أشياء أخرى غير وسائل الاتصال، وتزودهم بالطرق المؤدية إلى بناء تواصلٍ لكل شيء يتطلعون إلى دراسته. ومن واجب الباحثين أن يدركوا بأن هذه الحرية النظرية ليست “براءة” جديدة لكتابة أي شيء باسم التواصل. إن صرامة المنهج الإثنوغرافي الذي ترتبط به انثروبولوجيا التواصل سيُحبط عزيمة أكثر من هالو.

وهنا السبب الثالث الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأن أنثروبولوجيا التواصل غير مهددة بالزوال لأن إعادة الكشف في ميدان علوم الإعلام والتواصل عن مسؤولية الباحثين بشأن المواضيع التي يدرسونها، والتي لم تطرقها من قبل وسائل الإعلام والتكنولوجيا الحديثة، سيحدث تغييرا مهما في مجال علمي له ميل تقليدي لاستعمال نفس النماذج ونفس الصيغ ونفس التساؤلات بخصوص الموضوعات نفسها.

هذه المحاضرة مأخوذة من المصدر الآتي بتصرف:

Yves Winkin : Vers une anthropologie de la communication, dans la Communication, état des savoirs, édité par Philippe Cabin et Jean-françois Dortier, éd Sciences Humaines, Paris, 2005, pp 95-100
ترجمة: د. كريمة نور عيساوي

• موقع <https://francheval.com/ar/> بتاريخ 2021/02/22 على الساعة 17:00 بتصرف